بسم الله الرحمن الرحيم

٦٥

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية / قسم الدراسات العليا
أدب ونقد / السنة الثانية

النزعة الاجتماعية في شعر
حافظ ابراهيم

إعداد الطالب
صالح خليل أحمد محسن

١٩٧٦م / ١٩٧٧م

٠٠٢٧٨٤
٧٩٨
جامعة أم القرى مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه وبعد:

فقد أسهم حافظ إبراهيم مساهمة فعالة في النزعة الاجتماعية في مصر منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن الى نهاية الثلث الأول منه مثل غيره من شعراء عصره: أحمد شوقي وأحمد محرم ومحمد عبد المطلب وغيرهم. عبر عن الجامعة الاسلامية حين كانت هي النزعة الغالبة على تفكير العصر، حين لم تكن الفكرة القومية بمعناها الحديث قد سيطرت على الأذهان فمدح الخليفة معبراً عن احترام المسلمين له لأنه مناط عزتهم وقوتهم ضد الدول الاستعمارية المتربصة بهم الطامعة في اوطانهم وما فيها من خيرات كما أنه في تعبيره عن الاتجاه الاسلامي أشاد بالقيم الاسلامية والأخلاق الاسلامية والزعماء المسلمين وما كانوا عليه من عدل ورحمة واعتزاز بالحق مظهراً التسامح الاسلامي تخفيفاً لحدة النزاع بين المسلمين والقبط ويؤخذ على حافظ في هذا الاتجاه تقصيره في التعبير عن مشاعر

قومه عند سقوط الخلافة الإسلامية على يد الآثم مصطفى أتاتورك بينما نجد أحمد شوقي يصور أجمل تصوير حالة المسلمين بعد ذلك الحدث. كذلك عبر عن الاتجاه الاجتماعي أبدع تعبير وأصدقه فقد كان بحق ترجمان قومه وترجمان عصره، إذ عبر عن النزعة الوطنية القوية النزاعة إلى الحرية والاستقلال عن الإنجليز والتي كانت تتمثل في الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل الزعيم الوطني الغيور الثائر، وعبر عن النزعة الإصلاحية التي كانت تنادي بالإصلاح الشعب في كل مجالات الحياة وفي سبيل تحقيق ذلك لا مانع عندها من مهادنة الإنجليز حتى يصل الشعب إلى درجة تؤهله للحكم فقد كان حافظاً مهاجماً للإنجليز ساخراً متهكماً منهم ومن أعمالهم وتارة مهادناً لهم حباً في الإصلاح وخيفة من شرهم وأسهم في قضايا وحدة أهله وإخوانهم وشارك في قضايا التعليم ونشره وتعميمه، ويوم أطلت الفتنة برأسها تحاول أن تفرق وحدة الأمة انبرى يعمل على تنقية الجو من السموم وحين دعا المصلحون إلى إنشاء جامعة لتصنع للبلاد رواد الفكر تحمس حافظ للدعوة وآزرها وناضل مع المناضلين في سبيل تحقيقها

حاثاً على التبرع لها ، وحين يحمل الاستعمار وبعض المخدوعين
في دعواه على اللغة العربية يخوض حافظ معركة الدفاع بقوة
في سبيل سيادتها ، ويمضي مشاركاً في حركات الإصلاح
الاجتماعية مسهماً في قضايا وطنه الاجتماعية والإنسانية كحربه بيت
خمر وكالدعوة للمحافظة على الأيتام ورعاية المنكوبين حثاً على
التبرعات وتخفيفاً لمصاب المصابين ومشيداً بأثر الزكاة وفعاليتها
في ذلك يقول مصطفى الحرتي : من حسن الحظ أن الشعر العربي
لم يعدم شعراء متقدمين ، تجاوبت نفوسهم مع واقعات الحياة
ودنيا الناس وعلى رأس هؤلاء شاعر مصر الكبير حافظ إبراهيم
وحافظ مرآة صادقة لأحداث الحياة المصرية في زمنه تبلورت
في شعره آمال أمته ..... ويقول وربما كان حافظ أول
رائد للشعر الاجتماعي . كان يفرح لفرح أهله ويأسى لأساهم
ويعبر عن آمالهم ويترجم عن عواطفهم . كان مصدر شعره بصورة
عامة الجماعة وروح هذا الشعب العظيم فهو ثمرة إحساسها وتفكيرها
اتجه لتحذير والتطوير . لقد كانت آراؤه الاجتماعية ذات
أهمية اجتماعية لأنه يستمد تلك الآراء من واقع الناس

وآرائهم ومناهجهم من آراء المصلحين والمفكرين وغيرهم
فالآراء وقتذاك متنوعة تتجه وجهات مختلفة من أجل
رفع مكانة مصر والنهوض بها وإصلاحها. من هذه الأهمية
الاجتماعية يكتسب حافظ إبراهيم أهمية خاصة فهو يعكس
الآراء المتنوعة والأفكار المختلفة للناس وللزعماء

رحم الله حافظاً فقد انطبعت حياة أمته ومشاعرها في نفسه
فعكسها في شعره وأحس إحساساً عميقاً آلامها وآمالها
وما تتطلع إليه من الاستقلال والحرية

الباب الأول

الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية في مصر

الفصل الأول

الحياة السياسية :

عندما استولى «محمد علي» على عرش مصر جاهد في إنشاء دولة قوية خالصة لنفسه ولذريته من بعده فأفادت مصر من جهوده عسكرياً وصناعياً وزراعياً وتعليمياً وإدارياً

ولقد وجد أن خير وسيلة لتحقيق آماله أن ينهض بالتعليم وقد سلك في سبيل ذلك كل الطرق الناجحة : من بعثات للخارج وطباعة ونشر للكتب ونقل آثار الأمم الغربية وتأسيس الصحافة ولقد استفادت مصر من ذلك نفعاً عاماً في الجيش والصناعة والزراعة والتعليم والإدارة إلا أنه يؤخذ عليه أنه حكم حكماً استبدادياً واستغل الناس أسوأ استغلال إذ حكمهم بالقهر وأطاح ~~بالرؤوس~~ بالرؤوس الكبيرة في البلاد وجمع عقود التمليك ووزع الأراضي الزراعية توزيعاً جديداً كان لأقاربه وأنصاره النصيب الأكبر . كما أنه جعل مصر مزرعة

له من خيرات وينفقه من تلك الخيرات على الجيش الذي
يعده لتمكين ملكه وتثبيت عرشه وتوسيع نفوذه.

وفي عهدي سعيد وعباس الأول ركدت الحياة العلمية
الناهضة والنهضة الفكرية المتطلعة للتقدم. بل نستطيع أن نقول
إن التقدم قد تأخر بسبب عدم اهتمامها بالبعثات وقلة
عنايتها بالمدارس. أما اسماعيل فقد كان مفتوناً بالحضارة الأوربية
مهيئاً لنفسه جواً من الرفاهية الغربية بل واندفع في ذلك ببذخ وإسراف
فأكثر من إنشاء القصور وإقامة الحفلات والأخذ بمظاهر الترف
والبذخ وقد كلفه كل ذلك نفقات ضخمة، وحمله على التورط
في ديون كثيرة مما ساعد على تقوية النفوذ الأجنبي في البلاد
هذا ما يؤخذ على اسماعيل.. أما ما يحمد له فهو أنه سار بحركة
النهضة التي كادت أن تتوقف في عهدي سعيد وعباس الأول
خطا سريعة وحقق أشواطاً بعيدة فيها إذ أكثر من
البعثات التي كادت تتوقف من قبل وأكثر من فتح المدارس والمطابع
التي أخرجت كثيراً من كتب التراث العربي مما هيأ الاطلاع
عليه والاستفادة منه فأعطت بذلك مجالاً واسعاً للعقول

للابتكار والابداع علمياً وأدبياً . وفي عصره كثرت الصحف التي كانت رافداً مهماً للثقافة إذ أنارت الأذهان وألهبت الشعور بما كانت تنشره من المقالات السياسية والوطنية ولكن «في أخريات عصر اسماعيل ، ساءت أمور مصر واضطربت اضطراباً كثيراً وناء الفلاحون بالضرائب الفادحة العديدة وكان للامتيازات الأجنبية نصيب كبير في تدهور الحالة بمصر في تلك الآونة» ① حيث قد أصبحت أداة ينتفع بها جشع الطغاة من الاوربيين وأشباه الأوربيين . كانت هذه الأمور من العوامل التي ملأت قلوب المصريين حقداً وكراهية لاسماعيل وحكمه ومما زاد الأمور سوءاً أن انجلترا وفرنسا كانتا تدفعان الحوادث دفعاً نحو التأزم حتى تتاح لهما الفرصة للتدخل المباشر وافتراس مصر ، ففرضتا على مصر وزارة فيها وزيران أوربيان برياسة «نوبار باشا» واشتطت هذه الوزارة في الضرائب وجبايتها وتأخرت رواتب الموظفين وعزل الكثيرون منهم ، وانتقصت سلطة الباقيين وتقرر فصل عدد كبير

---

(١) تطور الأدب الحديث في مصر ص ٤٥

من ضباط الجيش ... فؤاد السخط، ①

وتولى توفيق العرش بدل أبيه وكان المصريون يعلقون عليه آمالاً كبارا ولكنه ما لبث أن تنكر للمبادئ الإصلاحية بعد توليه العرش وأبعد المراقبة الثنائية وخاصم الحكم النيابي وحكم البلاد حكماً مطلقاً وكان في هذا منفذاً لمشورة الأجانب مستجيباً لتدخلهم فعز ذلك على كثير من رجال مصر ورأوا لزاماً عليهم أن يضعوا حداً لهذا التيار المعادي للشعب وآماله فتحركت العناصر الوطنية في الجيش بزعامة عرابي، وأصحابه مطالبة بتحقيق مطالب الشعب العادلة وانتهز الإنجليز الفرصة ونفذوا مؤامرتهم الاستعمارية ليتخلصوا من تلك العناصر الوطنية أولاً وليتم لهم ما طمعوا فيه من احتلال مصر سنة ١٨٨٢م واكتفى الخديوي توفيق، بعدئذ من حكم البلاد بالاسم وبعض مظاهره الشكلية وأطلقت أيدي هؤلاء المعتدين في مصر ليضعوا كل قواها على الوجه الذي يحقق مطامعهم

وأجهد الإنجليز الخزانة المصرية بتعويضات مجحفة تؤدى للأجانب

---

(١) في الأدب الحديث ج١ ص ١٧٣

وعملوا أيضاً على إضعاف الناحيتين الثقافية والأخلاقية فقد عوقوا البعثات وأهملوا المعاهد العالية واقتصر الاهتمام بالتعليم على اللون الذي يخرج طائفة من الموظفين الذين يعملون تحت رياسة رؤساء انجليز وكان من أبرز مظاهر تخلف التعليم في عهد الاحتلال انخفاض نسبة المتعلمين، كذلك فرضت اللغة الانجليزية على التعليم وحوربت اللغة العربية، وظهرت مع الاحتلال عيوب خلقية في طبقات المجتمع والنفاق وغير ذلك مما يخلفه فقدان الحرية وسوء النظم الاقتصادية وأدخل الاحتلال إلى مصر ألواناً من المباذل في المدن كنوادي الميسر وحانات الخمر وتسربت كثيراً من الرذيلة والمدنية فعرفت حياتنا الاجتماعية -وخاصة في المدن- عيوباً لم تعرفها قبل عهد الاحتلال لهذا كان على مصر أن تناضل في ميادين عديدة في ميدان السياسة ضد المحتل ... وفي ميدان الاقتصاد ضد الفقر والاستغلال، وفي ميدان التعليم ضد الجهل والأمية وفي ميدان الثقافة ضد العدوان على اللغة وتراث العرب والإسلام وفي ميدان الاجتماع ضد التخلف والجمود

الفصل الثاني

في الحياة الثقافية

بدءت تباشير النهضة الثقافية في عهد "محمد علي" الذي اهتم بالعلوم والصناعات وخاصة ما كان منها يتصل بسبب إلى المطالب العسكرية فقد رجع أعضاء البعثات يحملون أفكاراً جديدة وثقافة جديدة وعلماً جديداً وأخذوا ينشرون ذلك عن طريق التدريس والترجمة والعمل في دواوين الحكومة المختلفة وظهرت الطباعة التي يسرت الاطلاع على كثير من الكتب المترجمه والمنقوله عن كتب التراث العربي وافتتحت المدارس الابتدائيه والمتوسطه والعاليه وظهرت مدرسة الألسن، تحت إدارة رفاعة الطهطاوي وكان صاحب عقل واعٍ مدرك ومقدرة متنوعه مستنيره فترجم وألف وطبع كثيراً من تلاميذه بأفكاره وثقافته.

وفي عهد إسماعيل أدركت مصر حظاً محموداً من الحضارة إذ شاعت فيه العلوم المختلفة واستوثق الاتصال بيننا وبين الغرب عن طريق البعثات المختلفة التي كان يرسلها الكثير

وبما كان يرد إليها من الغربيين مدرسين وعلماء وتجاراً وبما نزح إليها من أعيان الأدباء والكتاب السوريين الذين كان لهم فضل عظيم في نشر الثقافة والمعرفة

وفي هذا الطور ظهر إمام الشعراء "محمود سامي البارودي" صاحب الفضل العظيم في تجديد أسلوب الشعر وانقاذه من الصناعة اللفظية والتكلف العقيم ورده إلى صدق الفطرة وسلامة التعبير وكان له أثر عظيم بين محدثيه من الشعراء ولا سيما "حافظ إبراهيم"

وعندما رزئت مصر العزيزة بالاحتلال الانجليزي في سنة ١٨٨٢م كان أول هدف له ، هو أن يسيطر على توجيه التعليم والثقافة العامة في البلاد توجيهاً يتمشى وأهدافه الاستعمارية

ولقد تجلت سياسة الاحتلال التعليمية على يد ذلك الاسكتلندي المتعصب "دوجلاس دانلوب" الذي اعتبر المدرسة مصنعاً لتخريج الموظفين

٧٩٨
جامعة أم القرى / مكتبة المكرمة * UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH
قسم المخطوطات

الفصل الثالث

في الحياة الاجتماعية

إن أعمال الإصلاح في الجيش والصناعة والزراعة والتعليم التي تمت في عصر محمد علي، ~~لم~~ كانت أساساً لنهضة شاملة وتقدم عظيم إلا أنه حكم البلاد حكماً استبدادياً، عانى الشعب فيه أعمال السخرة والإرهاق، ولم يتذوقوا طعم الحرية الشخصية ولا حق الملكية فقد تملك كل أراضي مصر ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعها، كما احتكر التجارة والصناعة، وقد أساء هذا النظام إساءة كبرى لأنه ضرب عليهم حجاباً من الفقر والجمود.

وإذا كان إسماعيل قد نهض بالجيش وبالتعليم فأرسل البعثات وفتح المدارس ونهض بنواحي الحياة الأخرى نهضة كان همه منها أن تضارع مصر الدول الأوربية حضارة وثقافة وقوة، إلا أنه اقترض قروضاً فادحة ~~وأسرف~~ وأنفقها في إسراف وفي الملذات، وفي عهده ناء الفلاحون بالضرائب وكان للامتيازات الأجنبية نصيب كبير في تدهور الحالة بمصر

وتضررت الصناعات والأعمال التجارية ضرراً بليغاً بسبب الضرائب الجديدة وكان ذلك مما ملأ قلوب الناس كراهية لإسماعيل.

ولما تولى توفيق، بدل أبيه أخلف ظن الناس فيه إذ تنكر للمبادئ التي كان ينادي بها وأرجع المراقبة الثنائية وخاصم الحكم النيابي وحكم البلاد حكماً مطلقاً مما جعل الجيش بقيادة عرابي، وأعوانه يثورون عليه ولكن الانجليز اغتنموها فرصة لاحتلال مصر. وإذا كانت أحوال البلاد الاقتصادية سيئة زمن الاحتلال فإن الأحوال الاجتماعية كانت أشد سوءاً إذ شجع الانجليز الطبقات وعملوا على إيجاد هوات كبيرة بين كل طبقة وأخرى حتى تشعر الجماعات الكادحة بالذل والبؤس

وفي خلال الحرب العالمية الأولى كثر الوافدون على مصر من مختلف الجيوش المحاربة فطغت المفاسد واستحكم الغلاء وظهر الاستهتار بالتقاليد واشتد طغيان المادة والإقبال على لذات الحياة وجرفت بعض فئات الشعب في هذا التيار وخشي المصلحون أن تنهار القيم الخلقية فأخذوا

ينادون بشتى الدعوات الإصلاحية لحفظ الأخلاق الكريمة ولنشر الخير وفرض العدالة الاجتماعية ومحو الفقر والحاجة والأخذ بالنفوس إلى أن تسمو عن المباذل التي كان يسر المحتلون انتشارها وعن الذل والرشوة والمحاباة والملق والكذب لعل حال الناس يصلح

وشارك الأدب في ذلك فقد أخذ يتناول مشكلات الحياة وما يهم الناس وما يبعث اليقظة والنهضة مدافعاً عن حرية الشعب وحقه في الخير والتقدم مبيناً سوء حال الناس وموضع بؤسهم وأدوائهم وطرق علاجها واقفاً للحكام بالمرصاد مشجعاً أفراد الأمة للمطالبة بحقوقهم وأخذ الأدب يدعو إلى الأخذ بنظام الشورى في الحكم حتى تسعد الأمة بالعزة والسيادة وأخذ يحارب الاستعمار ويثير الحمية الوطنية ضده وينير الطريق أمام الإصلاح الاجتماعي .

الباب الثاني

يتناول هذا الباب حياة حافظ وأخلاقه وطباعه وثقافته

وقد قسمته إلى ثلاثة فصول جعلت الفصل الأول لحياته وجعلت الثاني لتحليل أخلاقه وطباعه وخصصت الثالث لثقافته

الفصل الأول

حياة حافظ ونشأته

ولد «محمد حافظ إبراهيم» في مركب (ذهبية) بالنيل كانت راسية بالقرب من قناطر «ديروط» بالصعيد كما سجل هو بخط يده في ملف خدمته، وكان يملك هذه الذهبية «محمود سليمان باشا» من كبار سادة الصعيد في ذلك الوقت، وقد قدم إليها والد شاعرنا «إبراهيم أفندي فهمي» أحد المشرفين على القناطر ليقيم بسكناها لقاء توفير المياه لإرواء أراضيه الواسعة

ولا أحد يعرف ولا حافظ نفسه يوم ولادته على وجه التحديد كما أقر بذلك. وعندما أريد تعيينه في دار الكتب يوم ٤ فبراير سنة ١٩١١

---

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل ص ١٥

قدر القوميسيون الطبي سنه بتسع وثلاثين سنه وعلى هذا التقرير
يكون مولده يوم ٤ فبراير سنه ١٨٧٢ والذين يعرفون
معاصريه يقولون إنه كان أسن من ذلك

ولقد كتبت الى ديروط للبحث عن تاريخ ميلاد حافظ
فأجابت بأنها بحثت من سنه ١٨٧٠م الى سنه ١٨٨٠م فلم تعثر
عليه في دفاترها ولعله من كل ما سبق يكون قد ولد قبل عام ١٨٧٠
بقليل او لعله قد ولد في هذه الفتره ولم يسجل في دفتر المواليد"①

وفي العام الرابع من عمره خيم الحزن على اسرته إذ توفى والده
من غير أن يترك للأم مالاً تستعين به في تربية طفلها إذ أنه كان
موظفاً خارج الهيئة ولذلك انتقلت الأم الى القاهرة لتعيش
في كنف أخيها "محمد أفندي نيازي" المهندس بالتنظيم وبعد سنين
قلائل ألحق الخال الطفل "محمد حافظ" بالمدرسة الخيرية بالقلعة
ثم ألحقه بمدرسة القربية الابتدائية وانتقل منها حافظ
الى مدرسة المبتديان ، ثم تحول الى المدرسة الخديوية ولكنه لم
يمكث فيها طويلاً لأنه انتقل مع خاله الى طنطا سنه ١٨٨٧م

---

① حافظ إبراهيم شاعر النيل ص ١٦

وفي طنطا لم يكن حافظ يحمل نفسه محمل الجد في الدراسة والتحصيل فملّه خاله، وأشعره بملله، فابتأس حافظ وأحسّ بغير قليل من الألم، وعزم على أن يبدأ محاولاته في كسب قوته، ونوّه بذلك إلى خاله إذ يقول له:

ثقلت عليك مؤونتي إني أراها واهية
فافرح فإني ذاهب متوجه في داهية

وتوجه توًّا إلى المحاماة وكانت إذ ذاك حرة وكأنما أغرته بها لذاقة لسانه، وحسن منطقه فالتحق بمكاتب بعض المحامين ينتقل من ~~مكتب~~ مكتب إلى مكتب، ولما كانت هذه المهنة تكلفه الجهد في الاطلاع على القضايا والدأب في العمل والسفر أحيانًا للمرافعة في بعض القضايا لدى المحاكم خارج طنطا فإنه عزف عنها وخاصة أن نفسه تهوى الحرية والرفاهية والجمال وتضيق بالقضايا وما تقوم عليه من المنطق والقانون والحدود، ويذهب بعد ذلك إلى القاهرة ويلتحق بالمدرسة الحربية وينتظم بين طلابها ويتخرج فيها سنة ١٨٩١م ويعين في وزارة الحربية ويظل بها ثلاث سنوات ثم ينتقل إلى وزارة الداخلية فيمضي فيها عامًا"

وبعض عام ويحال بعدئذ إلى الاستيداع . ولما جهزت الحملة المصرية بقيادة كتشنر إلى السودان استدعي حافظ لمرافقتها . ويقوم تمرد في الجيش بالسودان ويتهم فيه بين الضباط المتهمين ويحاكم ، ويحكم عليه في سنة ١٩٠٠ بالإحالة إلى الاستيداع ولا يلبث أن يطلب إحالته إلى المعاش وكان ذلك سنة ١٩٠٣ .. وحافظ في أثناء ذلك قلق ، ضيق بعيشه وكان ذا نفس حساسة ، مرهفة الشعور فأحس إحساساً عميقاً ببؤسه وحاول أن يشتغل في صحيفة "الأهرام" ولكنها أغلقت أبوابها دونه وعندئذ اتجه حافظ إلى الشيخ "محمد عبده" ولزمه وقد تعرف عن طريقه على الطبقة الممتازة من المصريين أمثال سعد زغلول وقاسم أمين وصحابهم ... وهي الطبقة التي كانت تفكر في الإصلاح الاجتماعي وبذلك هيأ له اتصاله بالشيخ محمد عبده ، أن يعايش الطبقة الطامحة إلى الإصلاح وكان في الوقت نفسه يعيش في بيئة الشعب المفتقرة . ومن هذه الفترة الخصبة من حياته تفاعل حافظ مع الأحداث ورأينا شعره فلا يترك مناسبة اجتماعية أو سياسية تمر دون أن ينظم فيها

قصيدة . وظلت مراقبة للأحداث وهو من غير عمل زهاء ثماني سنوات كانت خيراً وبركة على الأدب العربي عين بعدها رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية وأقام فيها عشرين عاماً وكانت هذه الفترة في حياته فترة نضوب في شعره وجمود في قريحته إلا نادراً فكان منصبه نعمة عليه ونقمة على فنه

وفاته : ، كان حافظ في السنين العشر الأخيرة من حياته كثير القلق على صحته ، وكان يتوهم المرض في نفسه ولا يسمع بعلة من العلل إلا سأل عن أعراضها وأيقن أنه مصاب بها ، وشرع يعالج نفسه منها وكان قد أصيب بمرض السكر وحاول أصحابه أن يحملوه على التداوي من هذا الداء ولكنه كان ينتظم في العلاج أياماً ثم ينقطع . وقد حاول المرحوم داود بركات ، رئيس تحرير الأهرام إقناعه بمواصلة العلاج فلم يفلح لأن حافظاً كان ملولاً بطبعه، فأهمل العناية بصحته واستشرى داؤه وانتابته علل أخرى كلما تقدمت به السن فزاد ذلك من أوهامه وكان كلما قضى واحد من أصحابه أصابه الذعر وأحس بشبح الموت يقترب منه

... وذات ليلة اشتدت عليه العلة وكان قد دعا صديقه "إبراهيم رشيد" وآخر لتناول طعام العشاء معه ولم يستطع حافظ المشاركة في الطعام، فتمدد على مقعد بالقرب منهما يؤنسهما بحلو حديثه، وهو يعتقد أن بردًا خفيفًا قد أصابه سينصرف عنه بعد حين. وبعد أن غادره صديقاه أحس بالمرض يدهمه فاستدعى الخادم ليناوله الدواء، ومع ذلك لم يشعر بشيء من الراحة وأحس بالألم .. واستدعى الخادم المرحوم "عبد الحميد البنان" ليسرع بإحضار طبيب، فجاء على عجل ومعه الطبيب إلى منزل حافظ بكوبري القبة، فوجدا حافظ إبراهيم في النزع الأخير لا يقوى على النطق بكلمة وداع. ثم ما لبث أن ودع أنفاس الحياة الدنيا وقد ناهز الستين من العمر وكان ذلك في الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢ م" ①

---

① حافظ إبراهيم شاعر النيل ص ٤٢ وما بعدها.

الفصل الثاني

أخلاقه وطباعه

مات والد حافظ وهو صغير وخلف له اليتم وتشربه حافظ المرهف الاحساس في قرارة نفسه وملأ عليه إحساسه وهذا ما يعلل لنا كثرة توجيهه بقصائده لرعاية الطفولة والأيتام وعندما برم به خاله في طنطا لتعطله اشتغل بالمحاماة ولكن نفسه لم تطق البقاء فيها إذ كان ملولاً قلقاً لا يحسن الاستقرار في عمل بجد وصبر ومواظبة

ورغم ما كان يتمتع به من قوة البنيان، كان لا يقوى على تحمل متاعب الجندية ومقتضياتها وعندما رافق الحملة المصرية إلى السودان ضاق بالحياة فيها وأخذ يستصرخ من يعرفهم من الكبراء في رسائل شعرية ونثرية طالباً إليهم أن يخلصوه من هذه الحياة الصعبة. لقد كان ميالاً بطبعه إلى الندوات يسمع لأصدقائه ويسمعهم ويتحفهم من نوادره ومحفوظاته ويضفي على جو الندوات بهجة ومرحاً إذ كان خفيف الروح رائع النكتة يألف ويؤلف وكانت شخصيته واضحة

لا التواء فيه ولا تعقيد يستطيع المرء أن يصل إلى
أعمق أغوارها في غير عسر أو مشقة

«وكان مظهر حافظ يوحي بغير مخبره، فمن يره لأول وهلة
يعتقد أنه رجل فدم ثقيل ولكن هنيهة من مجالسته ينقلب
رأيه فيه إلى النقيض ... ومن أخص صفات حافظ الجود
الذي يكاد يبلغ حد السفه ... كان أجود من الريح المرسلة كما يقول
صديقه الشيخ البشري ولو أنه قبض يده بعض الشيء لأصبح من أهل
الثراء والغنى» ①

وكان سريع الغضب ~~سريع الرضا~~ إذا استفزه أمر
ثارت نفسه واستحال عليه أن يكبح جماحها وانطلق فوه يقذف
بما في دخيلته. ومع ذلك كان سريع الرضا مما يدل
على طيبة نفسه وسرعة انفعاله.

ومما يوصف به حافظ وله تأثير في شعره أنه رجل
اجتماعي بطبعه يكره العزلة، ويحب الاختلاط بأصدقائه
على تباين طبقاتهم. فقد عرف الأستاذ الإمام محمد عبده، واتصل

---

① حافظ إبراهيم شاعر النيل ص ٤٩ وما بعدها

بأصدقائه واتصل كذلك بالزعيم الوطني مصطفى كامل وبعلي يوسف وبعبد العزيز جاويش ولم يقطع صلته بأترابه من أوساط الناس من الشعراء والأدباء وعامة الناس.

الفصل الثالث

ثقافته

كانت ثقافة حافظ التي تلقاها في المدارس محدودة، واستطاع أن يعوض ذلك باعتكافه على قراءة كتب الأدب العربي وخاصة أنه كان مولعاً به فأخذ يشبع رغبته من كتب التراث ككتاب الأغاني الذي قيل إنه قرأه عدة مرات وكتاب "الوسيلة الأدبية" للمرصفي وكتاب "البخلاء" وكتب الجاحظ وغيرها من أمهات الكتب العربية. "وكان يطيل النظر في دواوين الشعراء ويحفظ متخيرها، وكان يحسن الوقوف على الشعر الجيد الرائع يختزنه بين محفوظه وساعده على ذلك حافظة قوية" ① وقد أثرت

---

① حافظ إبراهيم شاعر النيل ص ٧

هذه الثقافة العربية الرصينة ع شعره مما وفر له ديباجة الشعر العربي الخالص وطلاوته . بيد أنه لم يكن عاكفاً على قراءة منظمة ذات منهاج مرسوم ، ولم يكن كذلك يتناول المسائل التي يقرؤها الدارس المتعمق بل كان ـ كما يقول الأستاذ أحمد أمين " كالنحلة تنتقل من زهرة إلى زهرة وترتشف من هذه رشفة ومن تلك رشفة ، فهو يرضي ذوقه في أوقات فراغه بالمطالعة المتنقلة فإذا عثر ع أسلوب رشيق أو معنى دقيق اختزنه في نفسه ..

ولعل من أهم مصادر ثقافته التي أثرت في اتجاهاته الفنية المجالس التي كان يرتادها . فلقد عاشر من أول نشأته إلى غاية العمر أعلام الأدب واللغة والعلم والسياسة في عصره ، وداخلهم وجالسهم ونادمهم وأخذ عنهم وكان متقد الذهن قوي الحافظة مستقيم الطبع فأصاب من صحبة أولئك الأعلام في شتى المجالات أنفس ما أصاب من ألوان العلم والمعرفة " ① وخاصة أن هذه المجالس

---

① المرجع السابق ص ٧٤

كانت مدارس من أرقى المدارس تطرح فيها الحلول المختلفة وتبسط فيها أدواء الأمم

ومن مصادر ثقافة الصحف التي كانت موجودة في زمنه فقد اتصل حافظ بها وبأصحابها وكان يتردد على دورها ويقضي مع أصحابها ومحرريها الساعات الطوال فتزود بمعارف مختلفة في السياسة والأدب والاجتماع

واتصل حافظ بأعلام الأدب والعلم الذين اشتهروا في عصره ونهل من بحار علومهم، وكانوا له كالأساتذة يأخذ عنهم ضروبا من العلم والمعرفة، وكان يلتقي في مجالسهم بالعلما والأدباء والشعراء،① من أمثال توفيق البكري وحفني ناصف وإسماعيل صبري غير أن هناك علمين من أعلام الفكر والأدب كان لهما أثر بليغ في اتجاهاته الفكرية والفنية وهما الشاعر محمود سامي البارودي، والأستاذ محمد عبده، ومحمود سامي البارودي، باعث النهضة الشعرية في العصر الحديث إذ ارتفع بالشعر إلى منزلة العصر العباسي

---

① مقدمة ديوان حافظ ص ٢٢

وأعاد له ديباجته القوية وجزالة عبارته ومتانة قوافيه
وخلص الشعر من تلك الأصفاد التي كان يرسف فيها من الزخارف
اللفظية والمعنوية .

أما الإمام محمد عبده، فقد كانت له حلقة عصر كل يوم
بالأزهر وكان حافظ الشاب يلم بها فتملئ
نفسه إعجاباً لأنه يرى منه منطقاً في التفكير لا عهد
له به من قبل . وكانت مجالس الإمام مطارحة لألوان العلم
والعرفان، معرضاً لأحوال مصر خاصة والبلاد العربية عامة
وما فيها من عيوب اجتماعية وكانت تطرح أثناء ذلك شتى الطرق
للإصلاح وقد أفاد حافظ من ذلك ثقافة مختلفة .

الباب الثالث

النزعة الإجتماعية في شعر
حافظ

الفصل الأول : الجامعة الإسلامية في شعر حافظ

الفصل الثاني : الاتجاهات السياسية المختلفة
في شعره

〃 الثالث : الجامعة القومية والدعوات
الإصلاحية

〃 الرابع : الاتجاه العربي في شعره

الفصل الأول

الجامعة الإسلامية في شعر حافظ

من أولى مظاهر النزعة الاجتماعية في شعر حافظ الجامعة الإسلامية إذ كانت الخلافة الإسلامية هي الجامعة الكبرى للمسلمين على تباين أجناسهم، وتنائي ديارهم وتعدد أوطانهم وكانت السمة البارزة في السياسة والأدب هي الجنوح إلى موالاة الخلافة العثمانية فقد هال المسلمين في مصر أن رأوا الدول الأوربية تتألب على الخلافة الإسلامية. الجامعة الوحيدة للمسلمين حينئذ. ممثلة في تركيا بدافع من التعصب الديني والجشع إلى اغتصاب ولايات من تركيا لاحتلالها وقد احتلت انجلترا جزيرة قبرص، واحتلت الروسيا بعض أملاك تركيا على البحر الأسود واضطرت تركيا إلى التخلي عن رومانيا والصرب، ثم احتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ واحتلت انجلترا مصر بعد ذلك بعام واحد غير عابئة بمعاهدة لندن التي عقدت سنة ١٨٤٠ ثم هاجمت إيطاليا طرابلس ١٩١١ وهجم "هانوتو" على الإسلام والمسلمين

وانتهى بأن فرنسا صارت في شمال أفريقيا، حيث فتحت أراضيه واضطهدت شعوبه. فلا عجب أن يؤيد الخلافة المستنيرون، وأن يؤيدوا "آل عثمان"، وأن يتهموا أوربا بأنها تجدد حرباً صليبية ثانية، وأنها لا تقصد بضرباتها إلى تركيا فحسب، بل تقصد بها إلى الإسلام. على أن جمهرة الساسة والأدباء، كانوا في ذلك الوقت لا يجدون منافاة بين العاطفة الإسلامية والعاطفة الوطنية، بين الجامعة الإسلامية والنزعة الوطنية. ويرون من الميسور أن تستقل مصر استقلالاً تاماً على حين أنها عضو في الخلافة الإسلامية بل كان بعضهم يرى في ارتباط مصر ارتباطاً إسلامياً بتركيا سلاحاً يقاومون به الاستعمار الأوروبي

والآن إذا تساءلنا ما هو شعور حافظ إبراهيم نحو هذه الجامعة الإسلامية ممثلة في الخلافة العثمانية؟ وما هو دوره الأدبي في تأييدها ومناصرتها؟ وإلى أي مدى عبر عنها في شعره؟

الواقع أن حافظاً عبر عن هذه القضية الأدبية الكبرى

من عصره مشاركاً في ذلك الشعراء والأدباء في زمنه

ففي عيد جلوس السلطان ,,عبد الحميد،، سنة ١٩٠١م توجه

حافظاً بتهنئته معبراً عن جلال الخلافة وعظمتها في

نفوس المسلمين : ①

لمحت جلال العيد والقوم هيب ... فعلمني آي العلا كيف تكتب
ومثل لي عرش الخلافة خاطري ... فأرهب قلبي والجلالة ترهب
سلوا الملك الدوار هل لاح كوكب ... على مثل هذا العرش أو راح كوكب

مثل هذه الصفات التي خلعها حافظ على الخلافة الإسلامية في تركيا تعبر عما يكنه من احترام وتقدير لها

* * *

ثم يتوجه بعد ذلك إلى الخليفة ,,عبد الحميد،، مادحاً فيذكر سمو منزلته وعلو همته ورفعة شأنه معظماً إياها إياه ، واصفاً سعادة الترك في عيد جلوسه وأمم العرب لوحدة المسلمين تحت ظل الخلافة فحافظ هنا يرى أن الخلافة العثمانية تبدو مركز وحدة المسلمين يقول:

وهل أشرقت شمس على مثل ساحة ... إلى ذلك البيت (الحميدي) تنسب

---

① الديوان ج١ ص١٥

وهل مر في برج السعود متوج ... كما قر في (يلدز) ذاك المحجب
تجلى على عرش الجلال وتاجه ... مهيب وأعلام السرير ترحب
سما فوقه والشرق جذلان مشرق ... لطلعته والغرب خزيان يرقب
فقام بأمر الله حتى تزعزعت ... به دولة الإسلام والشرك مجدب ①

* * *

وتصور تربص الدول الغربية بدولة الخلافة يريدون إطفاء نورها ولكن هيهات لهم ذلك فهذا النور قوي غلاب وقوة الخلافة قوة باسلة إذ هي تقاتل في سبيل الله فحافظ هنا يبهجه أن يرى الخلافة العثمانية قوية غلابة ويثلج صدره أن ترد عدوان الدول الأوربية الحاقدة على الإسلام:

وكم حاولوا في الأرض إطفاء نوره ... وإطفاء نور الشمس من ذاك أقرب
فرماهم منه بجيش مدجج ... له في سبيل الله والحق مذهب ②

* * *

وإنه لمن دواعي سروره وفخره واعتزازه قوة جيش الخلافة وبأسه وجبروته وكأننا ونحن نقرأ ذلك

١، ٢) الديوان ج١ ص١٦

حتى أن «حافظاً» يرى في قوة جيش الخلافة قوة للمسلمين في شتى أوطانهم

لو أنهم حشدوا الجيوش بمشهد — رجحت بجيشك كفة الميزان
لو شاء ذللها على أعدائه — أو شاء أذهلها عن الدوران
يمشون في حلق الحديد إلى العدا — وكأنهم سدٌّ من الدسان
وكأن مقدمهم إذا لمع الضحى — سيل من الهندي والمرّان ①

* * *

كيف وقف حافظ إبراهيم .. من الشريف حسين .. عندما أراد أن ينفصل عن دولة الخلافة ؟ لقد هاجم حافظ «الشريف حسين» ولم يرض له أن يخرج عن الخلافة العثمانية جريًا وراء وعود «بريطانيا» التي كانت تغريه بالذهب وتدفعه دفعًا للانفصال عن الخلافة العثمانية ونظرة حافظ هذه نظرة حكيمة فالانفصال عن الخلافة ضعف وتشتت وفيه تحقيق لمطامع الإنجليز في هدم الخلافة الإسلامية والسيطرة عليها. يقول حافظ :

من لي على دار السلام تحية — وعلى الخليفة من بني عثمان
وعلى رجال الجيش من ساكنيه — أو راكب أو نازح أو داني

① الديوان ج ١ ص ٤٤

وعلى الألى سكنوا الحمى سوى   ذاك الذي يدعو إلى العصيان
والى الحجاز الخارجي رحابه   آل اقتسام الأصفر الرنان
ما للشريف المنتمي حسباً إلى   خير البرية من بني عدنان
أمسى يمالئه ويغض عنه   وضلاله بجهالة العربان ①

* * *

ويتوجه حافظ بالمدح "محمد الخامس" الذي تولى بعد "عبد الحميد" بعد خلعه ويستشف الإنسان من هذا المدح أن حافظاً رأى في "محمد الخامس" ملاكاً ولم ير فيه خليفة والواقع أن حافظاً ابتداءً من هذه القصيدة أخذت نظرته إلى الخلافة العثمانية تتغير ولم تعد النظرة الأولى هي المسيطرة عليه وهذا يرينا بوضوح ضعف الخلافة الإسلامية وقوة النزعة الوطنية (القومية) الآخذة في الظهور اسمعه

قد تولى (محمد الخامس) الملك   ملك فاعظم بتاجه المعوز ②

* * *

ويقص "كمال أتاتورك" الآثم في أسوأ حادث للإسلام والمسلمين على الخلافة الإسلامية ويفصل الدين عن الدولة هذا الحادث الذي يعد من أخطر ما واجهه المسلمون

① الديوان ج ١ ص ٤٥
② " ج ٢ ص ٤٧

في تاريخهم الحديث للمرة الأولى في حياتهم تسقط الخلافة بعد أن ظلت قائمة ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن تنتقل مركز الخلافة بين عواصم البلاد الإسلامية المختلفة وكانت الصدمة كبيرة في نفوس كثير من الشعراء ومنهم "أحمد شوقي" إذ عبر عن أعمق مشاعر الأسى والحزن والألم لإلغاء الخلافة من "أتاتورك" الآثم المارق والذي كان يضع شوقي والمسلمون آمالهم في استرجاع مجد الإسلام . ولكن حافظاً إزاء هذا الحدث الخطير لم يتكلم لم تتحرك عاطفة ألماً على الخلافة التي هدمها المارق الآثم "مصطفى أتاتورك"، والآن ما الذي أسكته عن ذلك ؟ هل الفاجعة الشديدة بلدت إحساسه وأسكتت لسانه ؟ أم هل خفت صوت الداعين إلى الجامعة الإسلامية فخفت صوته هو الآخر ؟

* * *

أخذ المسلمون منذ سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨) يحتفلون برأس السنة الهجرية وقد كان يمر من قبل كغيره من الأيام . وقد كان احتفال المسلمين في مصر عظيماً في

هذا العام وأخذ الشعراء يتبارون في إلقاء ما أعدوا
من قصائد يستعرضون فيها ما مر بالبلاد الإسلامية عامة
ومصر خاصة في العام الفائت من أحداث مستلهمين
من حياة الرسول ما يستنهض الهمم ويدفع إلى العمل
والجهاد. ويشارك حافظ في هذه الذكرى
معظماً هذا اليوم العظيم وما تم فيه من أعمال خالدة

أطل على الأكوان والخلق تنظر   هلال رآه المسلمون فكبروا
... وأذكرهم يوماً أغر محجلاً   به توجه التاريخ والسعد مسفر
وهاجر فيه خير داعٍ إلى الهدى   يحف به من قوة الله عسكر
يماشيه جبريل وتسعى وراءه   ملائكة ترعى خطاه وتخفر
بيسراه برهان من الله ساطع   هدى وبيمناه الكتاب المطهر
فكان على أبواب مكة ركبه   وفي يثرب أنواره تتفجر ①

* * *

ولحافظ قصيدة أخرى في تحية العام الهجري عام ١٩١٠
وفيها يستنهض الهمم لإعادة المجد الإسلامي العظيم
ويدعو إلى اليقظة والحذر والتسلح بالقوة والاستعداد

---

① الديوان ج، ص ٢٧

وقد صاحب فكرة الجامعة الإسلامية الحديث عن زعماء الإسلام وتصوير ضروب جهادهم وعبقرياتهم كذلك من أجل الدعوة إلى أن يقتدي بهم المسلمون حتى يصلوا إلى ما كان عليه أجدادهم من عزة ورفعة بعد أن أصابهم الوهن وسيطر عليهم الخمول. ولم يتخل شاعرنا عن ذلك فشارك بقصيدته "العمرية" ٨ فبراير ١٩١٨ وفيها صور حافظ "عمر بن الخطاب" نموذجاً للبطولة في الإسلام ونموذجاً في عدله وزهده في آرائه وأقواله وأفعاله نموذجاً بما تحلى به من الأخلاق الفاضلة وكأنه بهذه القصيدة يضع للمسلمين القدوة الحسنة من السلف الصالح ليقتدوا وينهضوا ويتبوأوا مكانتهم اللائقة بهم بقوله:

كم خفت في الله مضعوفاً دعاك به   وكم أخفت قوياً ينثني تيها
ومن حديث فتى غسان موعظة   لكل ذي نعرة يأبى تناسيها
فما القوي قوياً رغم عزته   عند الخصومة (والفاروق) قاضيها
وما الضعيف ضعيفاً بعد حجته   وإن تخاصم واليها وراعيها ①

---

① الديوان ج ١ ص ٨٢

وليشيد بما كان عند الفاروق من شجاعة في الحق فهو لا يخاف فيه أحداً مهما كان فعندما حبس أبو سفيان المال عنه وضعه في السجن إلى أن أحضر المال وأطلق سراحه يقول

وما أقلت «أبا سفيان» حين طوى   عنك الهدية معتزاً بمهديه
لم يغن عنه وقد حاسبته حسب   ولا (معاوية) بالشام يجبيه
قيدت منه جليلاً شاب مفرقه   في عزة ليس من عزٍّ يدانيه
.. في فتح مكة كانت داره حرماً   قد أمن الله بعد البيت غاشيه
وكل ذلك لم يشفع لدى عمر   في هفوة (لأبي سفيان) يأتيه
.. وتلك قوة نفس لو أراد بها   شم الجبال لما قرت رواسيه

وغير ذلك من الصفات الحميدة التي اتصف بها الفاروق والتي راحت تضرب الأمثال في العدل والزهد والتقوى والشجاعة وحب الحق وكراهية الباطل

* * *

وهكذا نرى أن حافظاً في نزعته الاجتماعية عبر أولاً عما في نفسه وما في نفوس مواطنيه من حب للخلافة العثمانية

وتقدير له واحترام ، مادحاً الخليفة العثماني والجيش
مشاركاً في الترحيب بالطيارين العثمانيين الذين قدموا إلى
مصر مظهراً الفرحة في انتصار الخلافة العثمانية على أعدا
وأعداء الأمة الإسلامية رافعاً من شأن الدولة العثمانية
ونستطيع أن نقول إنه كان يرى في قوة الخلافة قوة للمسلمين
ورداً لعدوان من تسول له نفسه باغتصاب ولاية أو وطن إسلا
وهنا عبر عن نزعة اجتماعية قوية في روح عصره كانت تتمثل في
أصحاب الجامعة الإسلامية الذين كانوا يرون البقاء في ظل الخلافة
الإسلامية إذ في ذلك حصن وقوة وعون لصد العدوان وحفظ
الاعتقاد أن ذلك لا يؤثر على
الأمة الإسلامية قوية صامدة مع ~~الدعوة~~ الاستقلال الداخلي
حتى يمكن لمصر أن تبني نفسها وتصلح أحوالها وتسير في طريق
النهضة والتقدم . وعندما خفت صوت الخلافة وتعرضت أرضها
في أيدي الحلفاء
للسقوط ثم قام أخيراً الآثم مصطفى كمال بإلغاء الخلافة
نهائياً
رأينا حافظاً يخفت صوته تدريجياً إلى أن يسكت أمام
~~تحت~~ الأمر الواقع ومن جانب آخر رأينا حافظاً يشيد
بالقيم الإسلامية كالشورى والزكاة والعدل وحب الخير

ويعظم في قصيدته "العمرية" أخلاق عمر العظيمة وصفاته الباهرة وأعماله المجيدة وكأنه بذلك يرسم الجادة للمسلمين حتى يسيروا عليها

ولعل من كل هذا نستطيع أن نقول إن حافظا في نزعته الاجتماعية عبر عن جانب قوي من روح العصر في اتجاهه الإسلامي تعبيراً واقعياً من جانب وتعبيراً عن عاطفة إسلامية قوية من جانب آخر داعياً فيه إلى التمسك بالقيم والفضائل الإسلامية المجيدة من أجل النهوض والصمود

الفصل الثاني

الاتجاهات السياسية المختلفة في النزعة الاجتماعية

لحافظ إبراهيم

"بعد أن آل الأمر إلى الإنجليز في مصر بعد أن انتصروا على أحمد عرابي، كان الناس قد دب فيهم الخوف واستبد بقلوبهم اليأس، وانطووا على أنفسهم، ووقف بهم كل ذي فكري وغير مفكر، فكلهم منهم غير بريء، حتى أولئك الذين لم يأخذهم الهلع لما شاهدوه من مظالم إسماعيل هانت عليهم استبداد الإنجليز منهم سواء في الرضا والاستكانة، ذلك الطابع العام للمصريين عهد توفيق غلبة الخوف وإيثار العافية والبعد عما يثير الخواطر والنفوس"①

أما الحالة الاقتصادية في البلاد فهي سيئة نتيجة سيطرة الإنجليز على كثير من مرافق البلاد فقد صار إليهم اقتصادها وإدارتها على السواء فبلد محتل إنما الاستغلال من أخص لوازم الاستعمار، على أن هذا الاستغلال لم يقف عند حدود الإنجليز وحسب بل تعداه ذلك لرؤوس الأموال الأجنبية بلا قيد أو شرط

---

① تطور النقد والتفكير الأدبي في مصر ص ٩-١١

ليلفت الإنجليز الأنظار عن دعوى الجلاء التي تبنتها حزب
على ذلك العهد وليستمد من غيرها الرضا والتأييد حفظاً
لأموال الرعايا والمستثمرين. وقصارى القول في هذه
الأوضاع الاقتصادية أنها تستهدف صالح الأجانب وتتحمل
نزوات المستغلين غير عابئة بمصر وبالمصريين. ومن ظلمة
الاستكانة والضعف يخرج نور الأمل في الخلاص من الإنجليز والأخذ
بيد مصر نحو التقدم ذلك أن الخديوي "عباساً" ما إن يتولى
الحكم حتى يأخذ على أبيه استخذاءه واستكانته فالتف حوله
المصريون وكلهم أمل فآزروه وناصروه وأحدثوا بينهم
ما يسمى "بحزب النهضة" الذي تخرج فيه مصطفى كامل
ومن الطبيعي ألا تجد هذه الحركة الوطنية سبيلاً ممهداً
وأتباع "كرومر" يزيدون يوماً عن يوم. حتى إذا كان عام
الوفاق هجر "عباس" "حزب النهضة" وانضوى هو الآخر
تحت لواء "كرومر" وحمل "مصطفى كامل" عبء الكفاح وأنشأ
على أنقاضه الحزب الوطني عام ١٩٠٧م. ونزل فريق من المصريين
عن شعور المسالمة والمهادنة في أمور السياسة والحكم

واعتبروا الخروج عليه خيانة وزندقة رموا بها مصطفى كامل
عندما أبى التنزل منزلتهم عن قضية الجلاء. واستجابت
طبقة كبار الملاك، أو من سماهم كرومر، بأصحاب المصالح
الحقيقية لسياسة الوفاق التي تمت بين السلطتين الشرعية
والفعلية ولم يكن يقف في وجه السلطة الاحتلالية سوى الحزب
الوطني الذي أخذ على عاتقه مهمة محاربة الاحتلال بقوة
والمطالبة بالجلاء بشدة.

إذا كان هذا هو الجو العام في مصر زمن توفيق وعباس، فما
هو اتجاه حافظ بل الأصح فما هي اتجاهات حافظ السياسية
في نزعته الاجتماعية؟ أو فما هي الاتجاهات العامة في
تفكير الناس؟

تبدأ رحلة حافظ مع الإنجليز أيام أن كان بالمدرسة الحربية
وفيها تظهر له جبروت الإنجليز وظلمهم واستبدادهم وعنتهم
وسياستهم الاستعمارية الخبيثة في قتل الروح المعنوية في الجيش
بشتى الوسائل ويصف حافظ ذلك كله إذ يقول: «فلقد لبثت
في الجيش مع من فيه بضع سنين، فصبرنا على حال الصبر على

على بعضه كل أولئك الذين سُخروا لبناء الأهرام، وإقامة البرابي وما باتت الإنس والجن مطوية الصدر على الطاعة لسليمان كما باتت تلك الجنود المصرية لرؤسائها الانجليزية »①

ويصف ألاعيب الانجليز وخططهم الماكرة لاضعاف الجيش إذ يقول: «دخلوا مصر وفي جيشها منهم أولي سابقة في الفضل وخصيص في العلم ومن حنكة السن، وحنكة التجربة وحنكة الحروب، فكنت ترى منهم المهندس الماهر، والكيماوي الباهر، فاستخفوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صفاً صلداً، فزحزحوهم عن أماكنهم، حتى أصبح الجيش عطلاً من كل رجل لبيب. ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تخرج أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف فيها لم أمرها وأسرعوا في سبيل كفر علومها. فأصبحت بعض العقم كما ترى، وقد جمدت فيها روح العلوم ونضبت سيول المعارف وأقفرت غرفها من نجباء التلاميذ وقام يعمه فيها ذلك القائم بالأمر والنهي هنالك وباتت لطلبة كل نذم وجاهل» ... ②

---

① ليالي سطيح ص ١٢٢ ② المصدر السابق ص ١٢٢

ويصف حافظ أُسلوب الانجليز الخبيث في قتل الروح المعنوية في الضباط
وغرس الذل في نفوسهم بقوله: « شكا ضابط مصري إلى
كبيره وهو يحاوره من سوء العيش وجفوة الرؤساء . فأجابه
الانجليزي وقد أمال سالفة تيهاً وثنى عطفه كبراً : إذا
أصبح السردار وقد أراد أن يملأ غرف المدرسة الحربية وفناءها
من التلامذة ، ألا تتم له تلك الإرادة . قال المصري : « بلى ،
فما يكلفه ذلك غير النشر في إحدى الصحف حتى تتوافد التلامذة
على بابه توافد القطا على المنهل العذب » . قال الانجليزي : «
لهذا أنتم فيما أنتم فيه من البلاء ، فهو إن يشأ يذهبكم ويأت
بخلق جديد ... لذلك تكسرت في المصري الأظفر ، وبات
مهضوم الجانب غير مرعي الجناب ، يعتوره الذل والخور » .

فحافظ في ذلك يصور ظلم الانجليز ، وبغيهم وأسالي
الشريرة الماكرة لقتل النفوس وهدم الأرواح ولذلك يكن
لهم في نفسه الكراهية والحقد

ويتهم وهو بالسودان بالتمرد ويحاكم ويحكم عليه
~~بالاستيداع~~ بالاستيداع ويدخل نفسه من ذلك غير قليل من

من الخوف منهم بالبطش به وهنا يحتمي بالشيخ محمد عبده " يدرس على يديه ويأخذ عنه ويتأثر به وإذا بحافظ يميل إلى المسالمة والمهادنة نحو الإنجليز ويبدو ذلك واضحاً في رثائه الملكة "فكتوريا" وقد نشر الرثاء في ٤ يناير سنه ١٩٠١م وهو لا يتورع في وصف قوتهم البحرية ومجدهم العظيم وجلال قدرهم

أُعزي القوم لو سمعوا عزائي   وأُعلن في مليكتهم رثائي
وأدعو الإنجليز إلى اصطبار   بحكم الله جبار السماء
فكل العالمين إلى فناء

أمالكة البحار ولا أُبالي   إذا قالوا تغالى في المقال
فمثل علاك لم أرَ في المعالي   ولا تاجاً كتاجك في الجلال
ولا قوماً كقومك في الجيل الحاضر. ①

* * *

وفي عام ١٩٠٢ يهنئ جلالة "إدوارد السابع" بتتويجه ويبالغ مبالغة شديدة في وصف جلالهم وقوتهم وغلبتهم إذ يقول

لمحت من مصر ذاك التاج والقمرا   فقلت للشعر هذا يوم من شعرا

---

① الديوان ج ٢ ص ١٣٦

①

يا دولة فوقه أعلام لها أسد   تخشى بوادره الدنيا إذا زأرا①

وفي استخذاء وذلة يطلب من الاستعمار البريطاني

الرفق بالناس وشيئاً من العدالة والإصلاح

إذا ابتسمت لنا فالدهر مبتسم   وإن كشرت لنا عن نابه كشرا①

من هنا نرى أن حافظاً في هذه الفترة من ١٩٠٠ - ١٩٠٢

مسالم مهادن للانجليز مطالب للإصلاح والرفق منهم بالناس
وكأني أنه يعبر عن آراء أصحاب المصالح الحقيقية في المسالمة والمهادنة
ولكن هل تستمر هذه المسالمة وهذه المهادنة عنده ؟

ألا يميل إلى منهج الحزب الوطني في حماسة

المطالبة بالجلاء وقوة التنديد بهم ؟

الواقع أن حافظاً لا تستمر المسالمة والمهادنة عنده طويلاً

بل يميل إلى منهج الحزب الوطني في حماسة المطالبة بالجلاء

~~وقوة~~ واستثارة في النفوس وإثارة الغضب ضد الانجليز

منددًا بالاتفاق الذي تم بين الانجليز والفرنسيين سنة

١٩٠٤ والذي أباح لفرنسا بعض الامتيازات في مراكش في

مقابل إطلاق يد الانجليز في مصر يقول

---

① الديوان ص ١٨

أيعجبني منك يوم الوفاق   سكوت الجماد ولعب الصبي

وكم غضب الناس من قبلنا   لسلب الحقوق ولم نغضب

وفي عام ١٩٠٦ في قصيدته « عيديًا بين الدولة العلية »
يحذر قومه من التعصب الغربي ضد العرب وينبه قومه
من سياستهم الماكرة الخبيثة التي لا يؤمن جانبها وكأنه يهزهم
هزًا قويًا أثناء تحذيره ~~و~~

يقولون في هذه الربوع تعصب   وأي وطن ليس فيه التعصب

فيا مشرقيين إن الغرب إن لا يداورنا   ففيه من الإصهار طبع مذوب

نخاف بأسهم في الرأس والرأس مقبل   ونخاف ضعفهم في الكأس والكأس تضرع ①

نلاحظ هنا يصور الإنجليز بالختل والمكر ويصورهم
بالخوف من الاندفاع فأوحى بالشعب أن يحذروهم
وينتبهوا لألاعيبهم.

وفي قصيدته (حادثة دنشواي نشرت في يوليه سنة ١٩٠٦)
يبدو حافظ بمظهر السياسي تارة وبمظهر الوطني الغيور
الثائر مرة أخرى

---

① الديوان جـ ص ١٩

والمظهر الأول يبدو في خطاب حافظ الانجليز في لين ورفق وتثبتاً لهم أن الشعب المصري لا يستحق هذه القسوة والبطش فقد كان موالياً مسالماً يقول ①

أيها القائمون بالأمر فينا   هل نسيتم ولاءنا والودادا

ولكنه ما يلبث أن تشتد نفسه على الانجليز فيتهكم بهم ويسخر منهم مصوراً غطرستهم وتعاليهم واستهانتهم بالعباد

خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً   وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق   بين تلك الربا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء   لم تغادر أطواقنا الأجيادا

إن حافظاً هنا يحس في نفسه غضبة قوية وثورة عارمة ولكنه يكبتها ولا يستطيع أن يؤجج لـ ثورات النفوس العاتيه .

وتندفع نفسه في غضب مستنكراً ظلم القضاة وبشاعة الحكم في هذه القضية يقول

ليت شعري أتلك (محكمة التفـ   ـتيش) عادت أم عهد (نيرون) عادا

ويصب حمم بركانه الثائر شواظاً منهاراً على رأس المدعي العمومي (ابراهيم الهلباوي بك)

---

① الديوان ج ٢ ص ١٢

أيها المدعي العمومي مهلاً   بعض هذا فقد بلغت المرادا
قد ضمنا لك القضاء بمصر   وضمنا لنجلك الإسعادا
إيه يا مدرة القضاء ويا من   ساد في غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا   قد لبسنا على يديك الحدادا ①

* * *

وفي قصيدته "وداع اللورد كرومر" والتي نشرت في ٧ ابري سنة ١٩٠٧ وفيها يظهر حافظ الشاعر بمظهر حافظ المؤرخ الذي يسجل الآراء كلها فهو يذكر رأي فريق من الناس يرونه أصلح الحالة الاقتصادية ولعلهم ينظرون إلى ذلك بمنظار مصالحهم الذاتية (وهم كبار الملاك) ويذكر رأى فريق آخر يرى أن "كرومر" رغم إصلاحاته فإنه قد ضيق التعليم ولم يبن الرجال الأقوياء بل إن سعيه الدائم كان منصبا لتخريج فئة الموظفين أنصاف المتعلمين

تشعبت الآراء فيك فقائل   أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
وكانت له في المصلحين سياسة   ترفق فيها تارة وتشددا

---

① الديوان جـ ٢ ص ٢٢

وآخر لم يقصر على المال همه   يرى أن ذاك المال لا يكفل الهدى
فلا تحمد الاثراء حتى يزينه   بعلم وخير العلم ما كان مرشدا
وأنك أخصبت البلاد تعمدا   وأجدبت في مصر العقول تعمدا ①

ويقول في قصيدة «شكوى مصر» نشرت في اول يناير ١٩٠٧ ساخرا من ظلم الانجليز ومن اصلاحاتهم التي لا يقصدون منها إلا مصالحهم ويؤلمه أن يقتلوا الروح المعنوية للناس ويجدبوا الأرض من التعليم العالي

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت   حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى   وأن أصبح المصري حرا منعما
أعد عهد اسماعيل جلدا وسخرة   فإني رأيت المن أنكى وآلما
عملتم على عز الجماد وذلنا   فأغليتم طينا وأرخصتم دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها   فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما
②

* * *

ويدخل حافظ عام ١٩١١ قفص الوظيفة ويسكت هنا الصوت الذي طالما سخر من الانجليز والذي طالما هز المشاعر الوطنية ونبه الناس إلى اليقظة والحذر وكأن الانجليز رأوا

① الديوان ج ٢ ص ٢٦
② الديوان ج ٢ ص ٢٥

رأوا فيه روحاً توشك أن تقذف الحمم في وجوههم تحبسه في سجن الوظيفة

وفي قصيدته (إلى عميد بريطانيا في مصر) وهو السير مكماهون" ونشرت في يناير ١٩١٥ يرحب حافظ بالعميد ويلطف ولين يرجو منه لمصر المقاصد الحميدة الطيبة ويرجوه أن يوضح الفرق بين السيادة والحماية. في هذه القصيدة نرى حافظاً قد استعذب قيد الوظيفة الذهبي واستمرأت نفس راتب هذه الوظيفة

أي مكماهون قدمت بالـ   ـقصد الحميد وبالرعايه
ماذا حملت لنا عن الـ   ـملك الكبير وعن (غرايه)
أوضح لمصر الفرق ما   بين السيادة والحمايه
نرجو لمصر حياة حرة   مصونة في ظل رايه
ونروم تعليماً يكو   ن له من الفوضى وقايه
ونود ألا يسمعوا   فينا السعاية والوشايه ①

* * *

وتمر السنون ونفس حافظ هادئة تستظل بظل الوظيفة وتنعم براتبها إلى أن يأتي عام ١٩٣٢م العام الذي يحال

---

① الديوان جـ ٢ ص ٨٢

فيه حافظ الى العاشق فينظمه عندئذ مستجيباً لمشاعر قومه الوطنية الفياضة . ففي قصيدته (في شئون مصر السياسية) قالها في عهد وزارة (اسماعيل صدقي باشا) في هذه القصيدة يلتهب غيظاً من الانجليز فهم لا مودة لهم ووعودهم كذب ونفاق ، يحركون الفتنة من وراء ستار صدق الناس ما ادعائاتهم بالاصلاح فالنفوس عندهم مراجل تغلي وينادي بأعلى صوته الجهاد الجهاد سنموت شرفاء او نحيا كراماً .

قل للحليف هل شهدت دماءنا   تجري وهل بعد الدماء سلام
سفكت مودتنا لكم وبدا لنا   أن الحياد على الخصام لثام
إنّ المراجل شرها لا يتقى   حتى ينفس كربهن صمام
... أمن السياسة والمروءة اننا   نشقى بكم في أرضنا ونضام
إنا جمعنا للجهاد صفوفنا   سنموت او نحيا ونحن كرام ①

* * *

وفي قصيدته الى الشعب الساحي (نشرت في الاهرام

---

① الديوان ج ٢ ص ١٠٥

١٩٢٢) ليضيق ضد الإنجليز بل وتكاد تزهق روحه من مكرهم وتسويفهم لذلك ينادي الناس أن يجمعوا أمرهم ويحاربوا صفاً واحداً وقوة واحدة من أجل استقلالهم .

ألم تخبرنِ التايمز عنا   وقد يقولوا مضروبا أمينا
بأنا قد لبسنا الغدر طبعاً   وأصبح ظننا فيكم يقينا
سنجمع أمرنا ونرون منا   لدى الجلّى كراماً صابرينا
ونأخذ حقنا رغم العوادي   تطيف بنا ورغم القاسطينا" ①

إن الحرب في دعوة حافظ واضحة جلية ضد الإنجليز لمكرهم وخداعهم وكأني بحافظ منذ كان يعلق عليهم آمالاً صحيحة والآن ضحى ان المكر هو المكر عند الإنجليز وان الخديعة من طبعهم .

فليس وراءكم إلا التجني   وليس أمامنا إلا الجهاد

وتكاد روحه المعنوية تصل إلى السماء لا يهاب البطش من الإنجليز فالشعب قوي مكافح صابر مجالد لا ترهبه الأباطيل

---

① الديوان جـ ص ١٠٧

حوّلوا النيل واحجبوا الضوء عنا واطمسوا النجم واحرمونا النسيما
واملئوا البحر إن أردتم سفينا واملئوا الجو إن اردتم رجوما
إننا لن نحول عن عهد سعيد او تردونا في الترب عظماً رميماً ①

من هذا نرى أن حافظاً الضابط يحز في نفسه الاديب الانجليز في قتل الروح المعنوية للضباط والجنود المصريين وما يخططون إليه من اضعاف المدرسة الحربية وحافظ بعد ذلك مسالم مهادن تارة، وطني غيور ثائر تارة أخرى أما وهو في سجن الوظيفة فهو خافت الصوت ساكن الروح خائف أن يفقد الراتب او يدخل السجن أما حافظ في سنة ١٩٢٢ السنة التي أحيل فيها ع المعاش فهو الوطني المتحمس ينادي بالجهاد ويفضح جهاد الانجليز الكاذب ويكشف خداعهم ومكرهم ويغذي شعلة الثورة الوطنية في النفوس ضد الحماية الانجليزية.

---

① الديوان جـ٢ ص١٠٨

الفصل الثالث

الجامعة القومية والنزعات الإصلاحية

في شعر حافظ الاجتماعي .

لم ينس حافظ في نزعته الاجتماعية أن يعبر عن إعجابه بالشعور الوطني في وطنه وبالزعيم مصطفى كامل وجهوده الوطني وعزيمته الجبارة في بعث الشعور الوطني عند المصريين ففي قصيدته التي ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ في احتفال "مدرسة مصطفى كامل" تعليقاً على خطبة الزعيم الشاب مصطفى كامل يظهر حافظ إعجابه بوطنية مصطفى كامل وحماسته ويحمل له التقدير فيقول :

سمعنا حديثاً كقطر الندى   يجدد في النفس ما جددا
فأضحى لآمالنا منشأً   وأمسى لآلامنا مرقدا ①

ويستثير في نفوس أهله الأمل في التقدم وتحقيق الخير لمصر

فدينك يا شرق لا تجزعن   إذا اليوم ولّى فراقب غدا

---

① الديوان جـ ١ ص ٢٦٤

فكم محنة اعقبت محنة   وولت سراعاً كرجع الصدى
فلا ييئسنك ضيق الخناق   وإن كان ضيقاً كحز المدى ①

* *

وبعاطفة وطنية رائعة يشيد حافظ بمصطفى كامل وبأياديه الوطنية البيضاء فهو الجدير بأن تعرف له الأمة هذا الفضل في إشعال الوطنية في النفوس.

لك الله يا (مصطفى) من فتى   كثير الأيادي كثيراً لعدا
إذا ما حمدتك بين الرجال   فأنت الخليق بأن تحمدا
سيحصي عليك سجل الزمان   ثناءً يخلد ما خلدا
ويهتف باسمك أبناؤها   إذا آن للزرع أن يحصدا ②

* * *

وفي ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ خفق قلب مصر خفقة الألم والجزع لمصاب البلاد في وفاة زعيم الشاب «مصطفى كامل باشا» باعث الحركة الوطنية وتفيض نفس حافظ المقدر للحركة الوطنية ولزعيمها بثلاث قصائد: الأولى أُلقيت على قبر الفقيد ساعة دفنه والثانية في ذكرى الأربعين

المرجع السابق جـ١ ص٦١، ② الديوان جـ١ ص٦٣،

اما الثالثة فقد نظمها عند مرور عام على وفاته

حافظ في ~~الرسالة~~ القصيدة الأولى بعاطفة قوية وتصوير دقيق للفاجعة ويصور بطولة "مصطفى كامل" وجهاده وأثر هذا الجهاد في يقظة الشعب وفي اقلاقه راحة الغاصبين

فيا سائلي أين المروءة والوفا ... وأين الحجا والرأي ؟ ويحك هاهيا
هنيئاً لهم فليأمنوا كل صائح ... فقد أسكت الصوت الذي كان عاليا

ويصور عظمة الفقيد في اشتغاله بالحركة الوطنية وسهره من أجل النهوض بأمته ووطنه # في المطالبة بالجلاء .

وكنا نياماً حين كنت ساهداً ... فأسهدتنا حزناً وأمسيت غافيا ①

وفي القصيدة الثانية يستعرض حافظ مواقف الفقيد الوطنية

وفي القصيدة الثالثة تدفعه فيض الشعور الوطني والاحساس بالفراغ الهائل الذي خلفه الفقيد يقول حافظ

أخي أرى وفؤادي ليس يكذبني ... روحاً يحف به الاكبار والعظم
أرى جلالاً أرى نوراً أرى ملكاً ... أرى محيا يحيينا ويبتسم
الله أكبر هذا الوجه أعرفه ... هذا فتى النيل هذا المفرد العلم ②

---

① الديوان ج ٢ ص ١٥٠ ② الديوان ج ٢ ص ١٦١

في هذه القصائد الثلاث في رثاء مصطفى كامل ،
عبر حافظ بجد عن الروح الوطنية في نزعته الاجتماعية
وكان أثناء ذلك قوي الشعور متدفقا ، رائع الأسلوب
لم يكن في قصائده لبس يحط منه ولم يكن فيه ضعف
يقلل من شأنه بل هي عواطف وطنية مشتعلة وصور خيالية
رائعة ومعانٍ في غاية الجمال والدقة والوضوح
والصدق في أسلوب جزل موحٍ بالغرض . لقد استطاع
حافظ بكل وضوح أن يعبر ~~عن~~ عما في روحه وروح مواطنيه
من وطنية صادقة ومحبة خالصة لمصر في هذه القصائد
عبر عن نزعة اجتماعية صادقة واضحة إذ عبر عن آلام
مصر لوفاة فقيدها الوطني الثائر وعبر عن آمالها وشعورها

الفصل الرابع

الدعوات الإصلاحية .

كانت الامتيازات الاجنبية تستهدف صالح الأجانب وتحمي ثروات المستغلين غير عابئة بمصر والمصريين وكما ذكرت سابقاً ان الانجليز فتحوا باب مصر على مصراعيه لرءوس الأموال الاجنبية بلا قيد ولا شرط ليلفت الأنظار عن دعوى الجلاء التي تبنتها فرنسا على ذلك العهد ، ولتستمد من غيرها الرضا والتأييد حفظاً لأموال الرعايا ولا يقف الحد عند هذا الوضع العجيب وإنما امتد إلى حقوق الدولة المشروعة ، فلم تكن الضرائب تزيد على حد معلوم مهما دعت الحاجة او الضرورة

وهجى حافظ ثقل هذه الامتيازات فيصور مساوئها وأخطارها على الاقتصاد الوطني وعلى المصريين يقول « يقول سطيح (اي فلان) ما دام امتياز الجانب الرومي لطعن بمدية ، ويستظل بعلم دولته ، والمصري يحمل القتيل ويخضع خضوع الذليل . كأنها دية القتيل المصري كرامة

للقاتل الروحي كما قال شاعرنا:

وفي الروحي موعظة   لقلب جد في اللعب
يقتلنا بلا قود   ولا دية ولا رهب
ويمشي نحو رايته   فتحميه من العطب ①

* *

ويحز في نفسه أن يرى الامتيازات الأجنبية تستغل أسوأ استغلال لصالح الأجانب دون مراعاة لاقتصاد مصر ولا لكرامة المصريين ويجد ذلك الضرر أشد الضرر والاستغلال أبشع الاستغلال في ذلك (الحوت الزؤام)

وما الحوت الزؤام إذا عقلنا   سوى الشركات حل لها الحرام
لقد سعدت بغفلتنا فراحت   تروعنا وأولها اللئام
فيا حبل القناة إذا احتوتها   (بنو التاميز) وانحسر اللثام
لقد بقيت من الدنيا حطاما   بأيدينا وقد عز الحطام
وقد كنا جعلناها زماماً   فقولوا هل إذا قطع الزمام ②

* * *

أرسل الانجليز قانون المطبوعات من جديد عام ١٩٠٩ سيفاً مصلتاً على رقاب الوطنيين واتخذوه أداة للإرهاب

① ليالي سطيح
②

والتنكيل بزعماء الحزب الوطني وفعلاً عطلت كثيراً من الصحف

وحافظ القريب من روح الشعب المعبر عن النزعة الاجتماعية فيه المقدر لآلامه وآماله يحزنه أن تقيد الصحف وتكبت الآراء ويرى في ذلك المصائب تنصب على روح الشعب لا صغاره، فيثور ~~حافظ~~ ويهاجم ويكشف الألاعيب المسمومة في مد امتياز القناة في قصيدته (تحية العام الهجري) [نشرت سنة ١٣٢٨ هـ - يناير ١٩١٠]

مررت على أرض الكنانة جرعة   بالنازلات السود أرهقا
حصدت مناجله غراس رجائنا   ولو أنها أبقت عليه لأورقا
فتقيدت فيه الصحافة عنوة   ومشى الهوى بين الرعية مطلقا
وأتى يساوم في القناة خديعة   ولو أنها تمت لتم بها الشقا ①

وبنظرة المصلح الاجتماعي يبين حافظ أثر الصحافة الحرة في خدمة الوطنية وفي تصوير آلام الشعب وما يقاسيه من حرمان ومن تعذيب ومن ظلم واستبداد ويبين أثرها في أيام الشدائد إذ تكون ناراً ملتهبة على الظالمين المحتلين

---

① الديوان ج ٢ ص ٥٩

كانت تواسينا على آلامنا   صحف إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوت الدمع فاستعصى بكت   عنا أسًى حتى تغيض وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهمًا   نرمي بها وسوابقًا يوم اللقا
كانت صمامًا للنفوس إذا غلت   فيها الهموم وأوشكت أن تزهقا
كم نفّست عن صدر حرٍّ جازعًا   ماذا ألمّ به وماذا أحرقا
قصّوا حواشيها وظنوا أنهم   أمنوا صواعقها فكانت أصعقا
وأتوا بحاذقهم يكيد لها بما   يثني عزائمها فكانت أحذقا ①

دعوته إلى العلم والحضارة :

ظلت مصر والبلاد العربية الأخرى إلى قبيل النهضة الحديثة في حالة من التأخر الاجتماعي حيث الجهل كان سائدًا والحياة العربية كانت متأخرة. وباحتكاكها بالحضارة الغربية وما هي عليه من التقدم في مجالات العلوم وتطبيقاته أدركت أهمية العلم.

وحافظ المتحمس لقضايا وطنه ومشاكله يحس إحساسًا عميقًا حاجة بلاده إلى العلم لبناء النهضة الحديثة ~~فيضيف~~ فينادي بقوة وحماسة أهله ليتسلحوا بالعلم

---

① الديوان ج ٢ ص ٥٩ وما بعدها.

لبناء الرجال القادرين على التقدم والنهضة بمصر يقول

شعرنا بحاجات الحياة فإن ونت عزائمنا عن نيلها كيف نعذر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة إلى قادة تبني وشعب يعمر
" " " " " " عالم يدري وعلم يقرر
" " " " " " حكمة تملي وكف تحرر ①

وإني أرى حافظاً يعبر عن شدة حاجة البلاد إلى العزائم القوية والقادة المهرة والعلماء الأفذاذ والحكماء وكأنه في هذه الأبيات يستحث الخطى فلا تواني ولا تكاسل.

حافظ هنا مصلح اجتماعي يرى الداء ويصف الدواء ويؤكد أهمية العلم ويرسم الطريق إلى ذلك بالعناية بالمدارس وتعهدها وحفظها وصيانتها وتزويدها بما يلزمها وبناء معاهد العلوم.

ولا يتوانى حافظ في التوجه إلى الشباب ناصحاً لهم بالتعلم ففيه لهم ولبلادهم العزة والقوة والسعادة

فتعلموا فالعلم مفتاح العلا لم يبق باباً للسعادة مغلقا

---

① الديوان جـ ٢ ص ٤٢

ثم استمدوا منه كل قواكم   إن القوى بكل أرض تتقى ①

على أن هذه الدعوة إلى الحياة الجديدة لم تقتصر على طلب الإصلاح المباشر بحث الناس على التسلح بالعلم والإقبال على موارده بل ظهرت أيضاً بطريقة غير مباشرة في الحث على وسائل التقدم الأخرى كالصناعة والزراعة والتجارة لفوائدها العظيمة في تقدم البلاد ورقيها. ولذا كما يرى حافظ في الشعوب الغربية قدوة فيما وصلت إليه من تقدم وحضارة في الميادين الطبية والطبيعية بفضل العلم فالعلم هيأ لهم حضارة مادية عظيمة يقول حافظ

قد حبستم المنون حتى   همّ أن يغلب البقاءُ الزوالا
وطويتم فراسخ الأرض طياً   ومشيتم على الهواء اختيالا
ثم سخرتم الرياح فسرتم   حيث شئتم جنوباً وشمالا
تسرجون الهواء إن رمتم السير   وفي الأرض من يشد الرحالا ②

وبصراحة ووضوح يتمنى حافظ أن يقتدي قومه بالغربيين في تقدمهم العلمي عصر خصيبٍ بالنوابغ من الرجال

---

① الديوان جـ ٢ ص ٦٠
② = جـ ١ ص ٣١٢

ذوي العقول الذكية . ما علينا إلا أن نترك التخاذل ونجد ونقتدي

ليتنا نقتدي بكم ونجاري ... كم عسى نستردها كان ضخما
إن فينا لولا التخاذل أبطا ... لاً إذا ما هم استقلوا اليراعا
وعقولاً لولا الخمول تولا ... ها لفاضت غرابة وابتداعا ①

* *

كان ناظر المعارف (دانلوب) ؛ ذلك الإسكتلندي ~~المتغطرس~~ المتغطرس يلهي الناس بكثرة الكتاتيب في القرى والمدن عن الجامعة . لذا قام المصلحون والمفكرون يثيرون المواطنين ويحثونهم على إنشاء جامعة مصرية ويقوم حافظ بدوره الاجتماعي بتشجيع الأغنياء للتبرع لها عن رغبة واقتناع لأهميتها في تخريج العلماء والمفكرين ويقوم بدوره في فضح نيات الإنجليز في تشكيكهم بالكتاتيب

إن كنتم تبذلون المال عن رهب ... فنحن ندعوكم للبذل عن رغب
ذروا الكتاتيب منشورا بلا عدد ... ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
وأنشئوا ألف كتاب وقد علموا ... أن المصابيح لا تغني عن الشهب ②

وبعين فاحصة مدققة يظل يستقصي نيات الإنجليز

---

① الديوان ج ١ ص ٢٥٩
② " ج ١ ص ٢٦٥

المبادرة في الإنفاق على فكرة إنشاء الجامعة وهنا
نصيح في قومه ألا يقنطوا من إنشائها بما يسمعونه من
العميد البريطاني وبما يضعه من العقبات في طريقهم .

لا تقنطوا إن قرأتم ما يزوقه   ذاك العميد ويرميكم به غضبا
وراقبوا يوم لا تغني حصائده   فكل حي سيجزى بالذي كسبا ①

* * *

وبعين المصلح الاجتماعي الخبير وبحكمة الحكيم ودراية
المتطلع الواعي لا يني حافظ التركيز على الأخلاق مع العلم
حتى يعطي ثمار المرجوة في نفوس الصالحين .

ولعل مورد العلم ما لم يسانده الأخلاق ورد سراب
ويقول :

والعلم إن لم تكتنفه شمائل   تعليه كان مطية الإخفاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده   ما لم يتوج ربه بخلاق ②

ويقول :

ارفعوا دولتي على العلم والأخلاق   فالعلم وحده ليس يجدي ③

---

① الديوان ج ١ ص ٢٦٥
② = = ص ٢٧٩
③ = ج٢ ص ٩٠

في الحملة على المفاسد الاجتماعية: لقد ظهرت في المجتمع مع الاحتلال عيوب خلقية بسبب فقدان الحرية وسوء النظم الاقتصادية بسبب الضغط الاقتصادي على الطبقات الكادحة وبسبب الاستغلال من المستثمرين والاقطاعيين وكان يسر المحتل انتشار مثل تلك العيوب ~~الخلقية~~ وحين حافظ بهذه العيوب. ويدرك أخطارها على وطنه وهو الغيور ~~وهو~~ المصلح

ومن ذلك ~~هجومه~~ تهجمه على مدعي العلم وكشفه لألاعيبهم في الوثنية والتقية والطلاق قاصداً إلى توعية قومه وتنبيهاً على هذه الفئة خداع وتضليل.

كم عالم من العلوم خالٍ   لو بقيعة وقطيعة ومزاقه
وفقيه قوم ظل يرصد فرصة   لمكيدة أو مستحق طلاقه ①

ويهاجم الأطباء من ذوي النفوس الضعيفة والجشع الزائد.

وطبيب قوم قد أحل لطبه   ما لا يحل شريعة الخلاقه
قتل الأجنة في البطون وتارة   جمع الدوانق من دم مهراقه ②

(١ ، ٢) الديوان ص ١٣٨

ويهاجم الأُدباء المنافقين مزيفي الحقائق لأغراض نفعية شخصية لهم او لأمرائهم إطراءاً بالذين لاهم لهم إلا مصالحهم فهو أي حافظ يجب للأديب أن يكون نزيهاً بعيداً عن النفعية والإطراء بمجمله .

وأديب قوم تستحق يمينه — قطع الأنامل أو لظى الإحراق
من كفه قلم يمج لعابه — سُماً وينفثه على الأوراق
يرد الحقائق وهي بيض نواصع — قدسية علوية الإشراق
فيردها سوداً على جنباتها — من ظلمة التمويه ألف نطاق .

* * *

ويعيب على الناشئين اللهو وبينما الغريب مجد فقال :

أنابتة العصر إن الغريب — مجد بجد فلا تلعبوا
يقولون في النشء خيرٌ لنا — وللنشء شرٌّ من الأجنبي ①

وفي البيت الأخير ثورة من حافظ على النشء لإهمالهم وكأنه يصرخ بهم حتى يعملوا ويجدوا

وحافظ الذي يحب لقومه أن يكونوا في أعلى منزلة

---

① الديوان حـ ١ ص ٢٥٨

يستنكر أشد الاستنكار الخمول والكذب

وقالوا: دخيل عليه العفاء   ونعم الدخيل على مذهبي
رآنا نياماً وطئاً نفعه   فشمر للسعي والمكسب
ألفنا الخمول ويا ليتنا   ألفنا الخمول ولم نكذب ①

وهوجم حافظ بسبب انتقاده لقومه بسبب تلك العيوب حتى قالوا إنه يهاجم قومه ويسخر منهم والحقيقة أنه كان يريد بتقريعه إزالة تلك العيوب وبالتالي يستطيعون النهوض بوطنهم إنه يريدهم في أرفع الدرجات وفي أسمى الأخلاق ولهذا نستطيع أن نقول إن حافظاً في جملة هذه كان أشد غيرة على وطنه ومواطنيه محباً الخير لهم والرفعة والتقدم. فهو القائل

لعمرك ما أرقت لغير مصر   وما لي دونها أمل يرام

وهو القائل

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي   في حب مصر كثيرة العشاق
إني لأحمل في هواك صبابة   يا مصر قد خرجت عن الأطواق ②

---

① الديوان ج ١ ص ٢٥٨

② = ج ١ ص ٢٧٩

دعوته لرعاية الطبقة البائسة في المجتمع، ومن المظاهر التي استحقت العناية، عناية المصلحين، وعناية الأدباء مشكلة الفقر، فقد تخلف عن عهود الإقطاع مزيد من الناس حظوا بثروة عريضة، وغنى فاحش، وأنفقوا بسرف، وعربدوا بدون وعي بينما سواد الأمة في فقر، وقد تخلفت عدة مشكلات اجتماعية نتيجة هذا التفاوت الفظيع بين الطبقات، وكان من أوضح المشكلات الاجتماعية، الأطفال المشردون" ①

وحافظ إبراهيم الذي ذاق اليتم والبؤس في نشأته نراه ~~[illegible]~~ يأسى لما يعاني ~~المجتمع~~ من الطبقة البائسة من أدواء وفقر ومرض لذلك يكثر من القصائد في وجوب العناية بالأطفال اليتامى والمشردين فهم إن أهملوا كانوا عالة على المجتمع يعاني منهم بدل أن يكسب منهم وكأنه يحرص على مساعدتهم ورعايتهم حرصاً شديداً.

---

① في الأدب الحديث جـ ص

وفي قصيدة (رعاية الأطفال نشرت ١٩١٠) تصوير امرأة حاملاً كأنها شبح او طيف خيال، بلا من راع ولا والي، قد مضى الحمام بوالديه وبعمه والخال. فلما عرف حافظ أمرها حمله إلى دار رعاية الأطفال، حيث لقيت الرعاية والعناية ما رد عنه كيد داء القتال ①

جاءوا بأنواع الدواء وطوفوا بسرير ضيفهم كبعض الآل
وجثا الطبيب يجس نبضاً خافتاً حيردد مكمن دائه القتال
لم يدر حين دنا ليسلو قلبه دقات قلب أم دبيب نمال

ويمجد حافظ هذه الإنسانية العالية التي تدفع جماعة رعاية الأطفال إلى التبرع بجهدها لمن هو في حاجة إليه دونما من ولا زهو ولا إعلان

خير الصنائع في الأنام صنيعة تنبو بحاملها عن الإذلال
وإذا النوال أتى ولم يهرق له ماء الوجوه فذاك خير نوال

فأعضاء هذه الجماعة يبذلون ولا ينتظرون أجراً ولا شكراً لأن نفوسهم رقيقة لفطرتها الإنسانية بإحساسها مستجيبة للظروف

---

① الديوان جـ ١ ص ٢٧٧ . اجتماعيات حافظ إبراهيم دكتور كامل جمعه ص ـــــ ٣٠ وما بعدها.

الجمعية التي تدعوهم إلى عون الطفولة المشردة ويصف حافظ نموذجاً منها وصفاً حزيناً إذ يقول :

لم يدرِ ناظره أعرياناً يرى   أم كاسياً في تلكم الأسمال
فكأن ناحل جسمه في ثوبه   خلف الخروق يطل من غربال ①

ومن آخر القصيدة يتوجه إلى الأغنياء داعياً إياهم ~~أن~~ اقالة عثرات المحتاجين والبؤساء بمساعدتهم حتى ينالوا جزيل الثواب من الله تعالى

إني أرى فقراءكم في حاجة   لو تعلمون لقائل فعّال
فتسابقوا الخيرات فهي أمامكم   ميدان سبق للجواد العالي
والمحسنون لهم على إحسانهم   يوم الإثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجل عن   عدٍّ وعن وزنٍ وعن مكيال

وحافظ في هذه القصيدة مؤثر أبلغ التأثير بما أودع قصيدته من سمات القصة والعاطفة المؤثرة والصور المعبرة والأسلوب الواضح والمعاني المتنوعة الدقيقة . ولحافظ قصائد أخرى كثيرة في رعاية الأطفال

---

① الديوان ج١ ص ٢٧٢ . اجتماعيات حافظ إبراهيم د. كامل جمعة

ويُنوه حافظ بفضل الزكاة وأنها السبيل إلى رضا الله ، وأن القادرين لو أخلصوا في إخراج الزكاة ما عرف البؤس طريقه إلى المجتمع ①

وعلمنا أن الزكاة سبيل الإله قبل الصلاة قبل الصيام
فرضها الله في الكتاب بذكر فهي ركن الأركان في الإسلام
بدأت بدأ اليقين وظلت لحياة الشعوب خير قوام
لو وفي بالزكاة من جمع الدنيا وأهوى على اقتناء الحطام
ما شكا الجوع معدم أو تصدى لركوب الشرور والآثام

وإن حافظاً ليحس مأساة الطفولة المشردة إحساساً عميقاً ولاشك أن الجرائد تناولت هذا الموضوع في عصره ، ولكن قصيدة يقولها حافظ أجدى على الأيتام والمشردين من عدة مقالات ، بل إنا لنزعم أن قصائد حافظ الاجتماعية حولت منه في عصره شيئاً قريباً من وزارة الشئون الاجتماعية في قصائده هذه يصف العلل ويبرز المأساة ويستدعي الأساة ويستدر أنبل ما فيهم من عواطف الإنسانية والرحمة

---

① الديوان جـ ١ ص ٢٨٦ اجتماعيات حافظ إبراهيم د. كامل جمعة

وما أروع حافظا الذي بر بالطفولة ودعا لعونها وإنقاذها من براثن الجهل والفقر والمرض أن يرى بعينه أن هناك طائفة من بني وطنه تستحق أن يدعو لها ويعلن عن بؤسها وحاجتها إلى العناية والرعاية والإصلاح، وهي طائفة المكفوفين. وإذا كانت جمعيات الأطفال قد نالت قسطا وافرا من شعره وعطفه، فجمعية إعانة المكفوفين جديرة هي الأخرى بأن يقف حافظ في حفلها الذي أقيم بالأوبرا في ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٦ ليلقي قصيدة يستدر بها أكف المحسنين لبناء مدرسة لهؤلاء المكفوفين ويؤكد حافظ مفضلهم على إخوانهم الذين يتمتعون بوفرة المال ونعمة البصر:

إن حظ الضرير عند ذوي الأ ... باب حظ مستوجب التقديس
لم يضره فقدانه نور عينيـ ... ـه إذا اعتاض عنهما بأنيس
آنسوا نفسه إذا أظلم العيـ ... ـش بعلم فالعلم أنس النفوس①

وحافظ في معرض استنهاض الهمم يلوح للمتبرعين بالعائد عليهم من تبرعهم، والفائدة التي قد يجنيها المجتمع من صنيعهم.

---

① الديوان ج١ ص ٢٠٦ ، اجتماعيات حافظ إبراهيم ص ٢٠

فربما أنجبت مدرسة العميان عبقرياً يكون في مجتمعه ~~قائداً~~ ~~أ...~~ أديباً يشار إليه بالبنان مثل الدكتور "طه حسين"

أكملوا نقصه لكيه عبقرياً   مثل "طه" مبرزاً في الطروس
كم رأينا من أكمه لا يجارى   وضرير يرجى ليوم عبوس

* * *

أصاب البؤس جماعة من أبناء العروبة المقيمين في مصر ذلك أن الطلبة الشاميين في الأزهر انقطعت مواردهم المالية بعد قيام الحرب الكبرى بانقطاع صلتهم بأهلهم وذويهم. فأقامت جمعية الاتحاد السوري في دار الأوبرا السلطانية حفلاً لإعانة هؤلاء الطلبة ودعي حافظاً ويشارك بقصيدة في ذلك الحفل الخيري طالباً إعانتهم ①

إن في الأزهر قوماً نالهم   من لظى نيرانها بعض الشرر
أصبحوا - لا قدر الله لنا   في عناء وشقاء وضجر
نزلاء بيننا إن يرهقوا   أو يضاموا إنها إحدى الكبرى
فأعينوهم فهم إخوانكم   مسهم حزن ونابتهم غير

---

① الديوان ح ١ ص ٣٠٠ اجتماعيات حافظ إبراهيم

أقرضوا الله يضاعف أجركم   إن خير الأجر أجر مدخر

* * *

وتمتد معارض البؤس الاجتماعي تحت أنظار حافظ، فلا يترك منها معرضا دون تسجيله. فمن ذلك ما حدث من حريق ميت غمر فقد شبت النار فيه يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٠٢، وأخذت تلتهم كل ما لقيته أو صادفته في المدينة حتى اليوم الثاني من الشهر نفسه. وهلك بسبب هذا الحريق كثيرون، ودمرت كثير من الدور والمتاجر.

وقد تألفت جماعة من الأعيان لتخفيف ويلات هذا المصاب، وتسابق الخيرون يجادوا بما عندهم، وهز الحادث كيان حافظ فصاح من أعماقه ①

سائلوا الليل عنهم والنهارا   كيف باتت نساؤهم والعذارى

كيف أمسى رضيعهم فقد الأم   وكيف اصطلى مع القوم نارا

ورأى ما رآه من جبروت الحريق وعصفه بالضعفاء بالكوخ فتوجه إلى السماء في دعاء خالص من قلب ملهوف مستغيث ①

---

② مقاطعات حافظ إبراهيم

① الديوان جـ ١ ص ٢٥٠

رب إن القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها ... ومر السيل أن يسيل انهمارا

ويصور ما غشي القوم من آثار الحريق ويعرض مصائبهم في معرض حزين نابض، حتى تتبين فيه ألسنة النيران التي اشتعلت تحصد الديار، والجماعات الهاربة من النيران تلقى النجاة عراة حفاة.

فأغارت وأوجه القوم بيض ... ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلت دورهم فلما استقلت ... لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراة ... حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما ... أقبل الصبح يلبسون النهارا ①

وبعد أن يعرض حافظ صوراً من البؤس ولوحات من التعاسة فلفح الحريق للمنكوبين نراه يتوجه إلى الأغنياء كعادته يستندي أكفهم ويطالبهم بحق الفقير الملهوف في أموالهم ويذكرهم بأنعم الله التي أفاضها عليهم وبهذا يؤكد حافظ الحق المعلوم في مال كل غني لأخيه

---

① الديوان ج ١ ص ٢٥١

الوطن الذي نكبته الحوادث وجار عليه الزمن. بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فهو يؤكد معنى التكافل الاجتماعي بين ابناء الوطن

دعوته لتعليم المرأة:

ولا يهمل حافظ المرأة ودورها العظيم في المجتمع لهذا فهو يطالب بتعليمها وتنشئتها تنشئة صالحة لتكون لابنائها مدرسة تعلمهم وتربيهم التربية الصحيحة

الام مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعباً طيب الأعراق
الام روض إن تعهده الحيا   بالري أورق أيما ايراق
الام استاذ الاساتذة الالى   شغلت مآثرهم مدى الآفاق ①

وهو في دعوته لتعليم المرأة والنهوض بحالها واعدادها اعداداً صحيحاً سليماً لأداء دورها في الحياة يحاذر في دعوته فلا يدعو إلى الحرية الكاملة بل يرغب بالتعقل والتروي

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً
بين الرجال يجلن في الأسواق

---

① الديوان جـ ١ ص ٢٨٢

يدرجن حيث أردن لا من وازع
يحذرن رقبة ولا من واقي
يفعلن أفعال الرجال لواهيا
عن واجبات نواعس الأحداق
في دورهن شئونهن كثيرة
كشئون رب السيف والمزراق
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا
في الحجب والتضييق والإرهاق

إنه يريد الاعتدال فلا تندفع في السفور ومزاحمة الرجال اندفاعاً مهووراً لا تحمد عواقبه ولا يجب التشديد عليها وتقييدها فالشر في التطرف.

فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا
فالشر في التقييد والإطلاق

ولا ينسى حافظ في دعوته لتعليم المرأة أثر الأخلاق مع العلم لذلك نجده يطالب بتربية الفتاة على الفضيلة مع تعليمها

ربوا البنات على الفضيلة إنها
في الموقفين لهن خير وثاق
وعليكم أن تستبين بناتكم
نور الهدى وعلى الحياء الباقي (1)

---

(1) الديوان ج١ ص ٢٨٠

دعوته الى التسامح الديني :

هاجت الفتنة بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ على أثر مقتل بطرس غالي ، وتطور الخلاف حتى بلغ درجة من الخطورة هددت سلامة البلاد ، وأوشكت أن تصيبها بنكبة من حرب أهلية طاحنة لولا تدارك العقلاء لها من الطرفين ، وكان الاحتلال الانجليزي بطرف خفي يوسع شقة الخلاف ويباعد بين عنصري الأمة ويغذي الفتنة بينهما ليجد في ذلك الحجة له بالبقاء في مصر . وقد انساق بعض أفراد من الأقباط وراء هذه النيات الاستعمارية وأخذوا يعلنون علانية في طلب حماية الانجليز لهم والمناداة ببقائهم في مصر حرصاً على مصالحهم وحماية لعقائدهم كما يزعمون .

وحافظ كعادته لطبيعته الاجتماعية السمحة أبلى في إسكات هذه الفتنة بلاءً محموداً ، وانطلق شعره يذكر بالقربى وبالوطن الواحد الذي يجمع الطرفين ويدعو الى نبذ الخلاف ويهتف بالمتنازعين أن

يفيئوا إلى منطق العقل ويسألوا التاريخ فلن يجيبهم إلا بما يورثه العبرة ويؤكد الروابط ويتوجه إلى الأقباط ألا ينصتوا إلى المتطرفين منهم ولا يستمعوا إلى دعاة الفتنة لأنهم لا يعرفون للأوطان حرمة ولا للأديان قداسة ولن تجني مصر من التقاتل إلا الخيبة والبؤس ولن يصيب الطرفين إلا الخسار والبوار يتوجه حافظ إلى عباس الثاني، أن يدرك الفتنة في مهدها ويعمل على إخمادها ثم يتوجه إلى الجانبين بتحكيم العقل والاعتماد على الروية والتعقل والابتعاد عن الانسياق وراء التهور يقول ①

مولاي أُمتك الوديعة أصبحت
عرا المودة بينها تنفصم
نادى بك القبطي من رايته
أن لا سلام وضاق فيه المسلم
وهم أبناء على النهى وأضلهم
مجرى الغنى وأقصر المتعلم
فهموا من الأديان ما لا يرتضي *
دين ولا يرضى به من يفهم
ماذا دها قبطي مصر فصده
عن ود مسلمها وكانا ينعم

---

① الديوان ج١ ص٩١

وعلام نخشى المسلمين وكيدهم
والمسلمون عن المكايد نوم

كيف يسعون للفتنة بينهم ؟ وهم الذين عاشوا معاً من أزمان بعيدة ويعيشون معاً في ظل الاحتلال ثم إن المسلمين مخلصون للأقباط يحترمونهم ويقدرونهم طالما أخلصوا لهم واحترموهم

قد ضمنا ألم الحياة وكلنا يشكو، فنحن على السواء وأنتم
الخير ضمين المسلمين جميعهم أن يخلصوا لكم إذا أخلصتم ①

ويبدو حافظ في هذا الفصل المصلح الاجتماعي يرى الداء ويصف الدواء يدعو إلى العلم والأخلاق وإلى الاقتداء بالدول الغربية في جدها وتقدمها ويحث على نبذ العصبية الاجتماعية التي تضعف العزائم وتطيل من أمد الاحتلال وتضعف أواصر المجتمع وتفتت في قوته وينادي بالدعوة إلى تعليم المرأة وإعدادها الإعداد الصحيح وفي نظرها لا يجب أن تنطلق في حرية كاملة ولا يجب أيضا أن يضيق عليها تعامل كبقية الأثاث لا قيمة لها ولا وزن

---

① الديوان ج١ ص ٢٩٢

بعنا لشر في التفسير والاطلاق ،، وما أروع حافظاً

وهو يحافظ على الطفولة اليتيمة او المشردة ويدعو الى

تعليمها وتربيتها وينادي الى رعاية المنكوبين والبؤساء والمحتاجين

إنه يبدو لحمامة سلام في المجتمع يحاول بكل طاقة عنده

أن يظل المجتمع بالتضامن الاجتماعي تحقيقاً للسعادة

للجميع . وما أحسن دعوته إلى التسامح الديني

ونبذ الخلاف بين ~~الطو~~ عنصري الأمة والرجوع الى

الحمد والعدل فهم ابناء وطن واحد تعايشوا فيه منذ

أزمان كيف إخوة متحابين فعليهم ألا يسمعوا الى

دعاة الفتنة حتى يعيش الجميع في وئام ووحدة وسعادة .

الفصل الخامس

بوادر الجامعة العربية حتى

نزعته الاجتماعية

أحس حافظ في نفسه كما أحس المجتمع من حوله بعاطفة الفرح والاعتزاز للجامعة العربية الوليدة. والتي أخذت تظهر بوضوح بعد الحرب العالمية الأولى - كنتيجة لظهور القوميات الأخرى - والتي كانت ترى في شعوب الشرق العربي أسرة واحدة ذات لغة واحدة وثقافة وآمال قومية مشتركة. أحس حافظ بذلك وعبر عنه بروح المحبة والاعتزاز إذ يقول

مصر أم لربوع الشام تنتسب　　هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما　　قلب الهلال عليها خافق يجب
خدران للضاد لم تهتك ستورهما　　ولا تحول عن مغناهما الأدب①
أم اللغات غداة الفخر أمهما

يتأثر السوريون المقيمون بمصر والذين هاجروا إليها بسبب اضطهاد العثمانيين وكبتهم للحريات وسعياً وراء الرزق

---

(١) الديوان ج١ ص ٢٦٩

بكثير من الوظائف الحكومية وبكثير من الصحف إذ وجدوا فيه بابًا من أبواب الجاه والكسب المادي فأحس أهلهم في مصر بشيء من الحزازات ضدهم لذلك ولكن حافظًا الشامي بفكره ووجدانه يرتفع عن هذه الحزازات ويعمل جاهدًا لإزالتها من النفوس فهو لا يرى بين المصريين وإخوانهم من السوريين إلا الحب والمودة والأخوة وما يصيب وادي النيل يصيب الشام وما ينزل بالشام تحس به مصر وتتألم فالعواطف مشتركة

أيرغبان عن الحسنى وبينهما — في رائعات المعالي ذلك النسب
ولا يمتان بالقربى وبينهما — تلك القرابة لم يقطع لها سبب
وإذا ألمت بوادي النيل نازلة — ~~نازلة~~ باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألم — أجابه في ذرا لبنان منتحب
لو أخلص النيل والأردن ودهما — تصافحت منهما الأمواه والعشب ①

وفي آخر القصيدة يمسح بين العرب الكرام آثار تلك الحزازات ويعلن مودته الصريحة للعرب وأن الشام ومصر وطن واحد وإن قدم بعض السوريين إلى مصر منهم

---

① الديوان ج ١ ص ٢٦٩

إخوان لأهلهم في مصر

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم
فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة إنّ الشام عاج على
ربوعها من بنيها سادة نجب
لولا رجال تغالوا في سياستهم
منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا
إن يكتبوا لي ذنبا في مودتهم
فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

* * *

"وكان يحس الإخاء القائم بين الشعوب العربية بوجدانه ويتشفعه بإيمانه" ① ويعبر عن هذا الإحساس الأخوي المخلص للعروبة في قصيدته التي حيا فيها الشام في حفل تكريمه ②

لي موطن في ربوع النيل أعظمه
ولي هنا في حماكم موطن ثاني
إني رأيت على أهرامها حللا
من الجلال أراها فوق لبنان
أقضي المصيف بلبنان على شرف
ولا أحول عن المشتى بحلوان

---

① حافظ إبراهيم ماله وما عليه ② الديوان ج ١ ص ١٢٤

كان للسوريين الذين وفدوا على مصر فراراً بحريتهم فضل في إذكاء الوعي الفكري في مصر ذلك أنهم ثقفوا في مدارسهم الفكر العربي مبكراً قبل مصر وانتفعوا بالبعثات الدينية الأجنبية التي جلبت لهم الحضارة الغربية من مصادرها وهنا لا يتوالى حافظ في الإشادة ببعض أدباء العروبة من السوريين الوافدين على مصر لمآثرهم

كم في نواحي ربوع النيل من طرف
لليازجي وصرّوف وزيدان
وكم لأحيائهم في الصحف من أثر
له المقطم والأهرام ركنان

* * *

ويجعل حافظ أولى الواجبات حقاً نحو كل طفل عربي أن نعلمه محبة الوطن العربي والعمل على أداء حقه حتى يرتفع ويرقى

فعلّموا كل حيٍّ عند مولده   عليه لله والأوطان دينان
حتمٌ قضاؤهما حتمٌ جزاؤهما   فاربأ بنفسك أن تمنى بخسران

ويصور حافظ قوة الصلات بين البلاد العربية مؤكداً عمق الروابط بينها ووحدة الشعور تجمعها بأقوى صلة

إذ يقول

النيل وهو أخو (الاردن) في شغف   يهدي إلى بردى أشواق ولهان
وفي العراق به وجد بدجلة   وبالفرات وتحنانٌ (لسيحان)

ويؤكد حافظ أيضاً قوة الترابط بين مصر وسوريا للأواصر التي تجمعها كالتاريخ المشترك والشعور الواحد واللغة العربية وما أروع حافظاً وهو يشيد بالوحدة العربية ويذكر حاجتنا إليها لأهميتها العظمى للبلاد العربية إذ فيها القوة

إنما الشام والكنانة صنوا   ن برغم الخطوب عاشا لزاما
أمكم أمنا وقد أرضعتنا   من هواها ونحن نأبى الفطاما①
نحن في حاجة إلى كل ما يـ   قوانا ويربط الأرحاما

* * *

وما أجمل عاطفة الأخوة التي يبرزها حافظ في هذه الأبيات فهو إينما حل في الشام لقي التكريم والمحبة والشعور الأخوي إنها الأخوة العربية الكريمة السمحة

قد نزلنا جواركم فحمدنا   منكم الود والندى والذماما
وحللنا في أرضكم فأصبنا   منزلاً مخصباً وأهلاً كراما②

---

① الديوان ص ٦٠
② المرجع السابق

وغشينا دياركم حيث شئنا   فلقينا طلاقة وابتساما

* * *

ولحافظ قصيدته المشهورة (اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها) وفيها الدفاع القوي بعاطفة متأججة وصور رائعة عن اللغة العربية لا الفصحى التي تجمع العرب في أقوى آصرة من أواصر القومية العربية وأهم عامل في وحدة الأمة العربية في شتى أوطانها بها القرآن الكريم دستور الحياة وبها تراثهم الرائع وفكرهم العظيم وبها يتم التفاهم بينهم يدافع عنها ويستصرخ العرب جميعاً لحمايتها ~~[illegible]~~ ودفع الضر عنها ①

أيطربكم من جانب الغرب ناعب   ينادي بوأدي في ربيع حياتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني   ومنكم وإن عز الدواء أساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني   أخاف عليكم أن تحين وفاتي

ويتوجه إلى الآباء والأجداد في الجزيرة العربية بالرحمة والخير لما قاموا به من حماية للغة العربية

سقى الله في بطن الجزيرة أعظما   يعز عليها أن تلين قناتي

---

① الديوان جـ ١ ص ٢٥٣

حفظن ووادي في البلى وحفظته   لهن بقلب دائم الحسرات

وبعاطفة حزينة معبرة عن أساه وعن استنكار

تام منه يعاتب من يريدون أن يهجروا اللغة الفصحى

إلى اللغة العامية الملوثة بالألفاظ الأفرنجية.

أيهجرني قومي عفا الله عنهم   إلى لغة لم تتصل برواة

سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى   لعاب الأفاعي في مسيل فرات

ويمضي حافظ في تعداد مزايا اللغة العربية

وكيف أن الله اختصها من بين اللغات لينزل بها القرآن

أفتضيق بعد كل هذا بالعلوم الحديثة وما فيها من اختراعات

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية   وما ضقت عن آيٍّ به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن   فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

ويحفظ أمير الشعراء «أحمد شوقي» لحافظ

دفاعه عن اللغة العربية وحسن بلائه في ذلك فيمجده

إذ يقول

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها

وإمام من نجلت من البلغاء

ما زلت تهتف بالقديم وفضله
حتى حميت أمانة القدماء

* *

رحم الله حافظاً لم يكن فرداً يعيش لنفسه بنفسه وإنما كانت مصر والبلاد العربية والإسلامية كلها تعيش فيه يحس بإحساسها ويتألم لها ويفكر بعقله من أجلها وينطق لسانه دفاعاً عنها . ويقول الدكتور طه حسين "ولا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعراً مثله طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله".

لقد التمست نفس حافظ لمواطن قوته في مصر وفي بلاد العروبة والإسلام .. ولقد أرهف البؤس والشقاء إحساسه فالتأم هذا الإحساس بأحاسيس شعبه الذي كان الاحتلال يجثم على صدره . فذهب حافظ ليصور آماله وطموحه ومطالبه السياسية والاجتماعية ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان من السابقين الأولين

في تحكيمه الشعر العربي الحديث في مصر من تصوير عواطف قومه الوطنية ومشاعرهم السياسية والاجتماعية محاولاً بعثهم والنهوض بهم في جميع مرافق حياتهم

سمات فنية :

إن معاني حافظ الشعرية واضحة قريبة لا يجد الإنسان عناءً في إدراك ما يرمي إليه إذ لم يكن ليتعمق في معانيه إلى النواحي الفلسفية .

تبهرك روعة في الصياغة حتى تأسرك بسطوة ألفاظه حرصاً منه على التأثير في النفس « إنه في أكثر شعره يؤثر البيت الجاد لفظاً على الجاد معنى » كما يقول صديقه خليل مطران » ①

وكان الرصافي يقول : إني أفضل حافظاً بنقادة ألفاظه وصحة تراكيبه ووضوحه وأفضل أحمد شوقي ببعض معانيه أحياناً » ②

ويقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي : «

---

① حافظ إبراهيم شاعر النيل ص ١٩٧

② الأدب العربي الحديث ودراسته ص ١٢٠

كانت رسالة حافظ وطنية سياسية تسعى إلى الرعاية

وإن حققت له نماذج رائعة في شكوى الزمان "

ويرى عبد العزيز البشري في شاعرية حافظ أنه "

كلف بالصنعة والديباجة ونخل الكلام وما بعد هذا فضل" ①

"لقد كان يرى أن الشعر هو في إشراق الديباجة وفصاحة القول وتلاؤم النسج ورصانة القافية لذلك اعتنى بتوفير عناصر الجمال اللفظي لشعره" ② لهذا نراه قليل الحظ من التجديد في الخيال وقلت تبعاً لذلك الصور الخيالية في شعره وأكثر ما نجد الصور الخيالية في شعره الوجداني وما يتصل بعاطفة الحزن لأنه يصدر عن عاطفة فياضة مما يجبر عقله على التحليق في سموات الخيال ومما يلفت النظر في صوره أنه كان يصبغ أحياناً بالطابع القديم لشدة تأثره بالشعر القديم

لقد كان ميالاً إلى الأسلوب الخطابي

لذلك كان يتوخى الألفاظ التي تحسن وقعها في الأسماع

---

① المرجع السابق ص ٦٧ ② حافظ ابراهيم شاعر النيل ص

والتي تكسب عواطف السامعين ولا تأتي إلا بالمعاني التي تستقطع أذهانهم في غير جهد يقول الأستاذ عبد الرحمن صدقي: إن المقياس الحري بأن يؤخذ به ويحتكم إليه في تقدير شاعر النيل هو مقياس الشعر الخطابي فقد كان حافظ ابراهيم ينظم قصائده للإنشاد ومما يروى عنه أنه كان في حال نظمه للقصائد يرفع عقيرته بما يرد على خاطره تحرياً للأثر الخطابي. فمطلبه الذي لم يكن يبرح ماثلاً نصب عينيه إذ كان لا يخفى عليه أن هذا قبل غيره هو موطن قوته وأن فيه سر فضله وميزته ويحضرني في هذا المقام ما كان يدور بين الأستاذ العقاد وحافظ حين يلقاه بعد تلك الحفلات العامة التي كان ينشد فيها قصائده الرنانة فقد كان يداعبه العقاد بقوله: ألا ترى أني صدقتك النصح يا حافظ حين قلت لك مرات أن تصدر ديوان شعرك حين تصدره في اسطوانات»①

ومما يتميز به شعره أنه يوضح لنا أن حياة أُمته ومشاعرها قد انطبعت فيه بما فيها من آمال وآلام ويبين لنا

---

① ذكرى حافظ ابراهيم ص ١٥٢

ما كانت تتعطش إليه مصر من الاستقلال والحرية

إذ كان حافظ ترجمان هذا الشعب في عصره فقد عبر

في شعره عن نزعات المصلحين وما يأخذون به أنفسهم

نحو الانجليز وعبر عن نزعات الوطنيين المتحمسين الذين

اندفعوا بقوة وبعاطفة حماسية من أجل الحرية والاستقلال

وصور مشكلات أمته وما كان يتداول من حلول ليبدي

رأيه بعد ذلك وقد أبدى في التعبير عن الأخوة بين

السوريين والمصريين تأكيدا للمحبة وللأخوة العربية .

المراجع

١- أدب مصر الحديث   مصطفى زيد

٢- ذكرى الشاعرين حافظ ابراهيم وأمير الشعراء

٣- حافظ وشوقي   الدكتور طه حسين

٤- "   "   حسن كامل الصيرفي

٥- مهرجان حافظ   عبدالوهاب عزام

٦- ذكرى حافظ ابراهيم

٧- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر   الدكتور محمد محمد حسين

٥- ليالي سطيح   حافظ ابراهيم

٩- مقدمة الديوان   أحمد أمين

١٠- ديوان حافظ بجزئيه طبعة ١٩٢٩

١١- في الأدب الحديث جزءان   الدكتور عمر الدسوقي

١٢- الأدب العربي الحديث ومدارسه   الدكتور/ محمد عبدالمنعم خفاجي

١٢- تطور الأدب الحديث في مصر   "   أحمد هيكل

١٤- تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر   الدكتور حلمي علي مرزوق

١٥- حافظ ابراهيم شاعر النيل   الدكتور عبدالحميد سند الجندي

١٦ حافظ ابراهيم ماله وماعليه

١٧ معالم النقد في الشعر المعاصر مصطفى السحرتي

فهرس البحوث

فهرس البحث

المقدمة
الباب الأول
الفصل الاول : في الحياة السياسية
" الثاني : " " الثقافية
" الثالث " " الاجتماعية
الباب الثاني
الفصل الاول : حياة حافظ
" الثاني : أقرانه وطباعه
" الثالث : ثقافته
الباب الثالث
الفصل الأول : الجامعة الاسلامية
" الثاني : الاتجاهات السياسية المختلفة
" الثالث : الاتجاه القومي
" الرابع : دعوات اصلاحية
" الخامس : بوادر الجامعة العربية في نزعته الاجتماعية
سمات فنية لشعر حافظ ابراهيم
المراجع